

الأدب العالمي للناشئين

تشارلز ديكنز



مهرجان القراءة للجميع

أوقات عصية



الهيئة العامة
للكتاب

الفصل الأول :

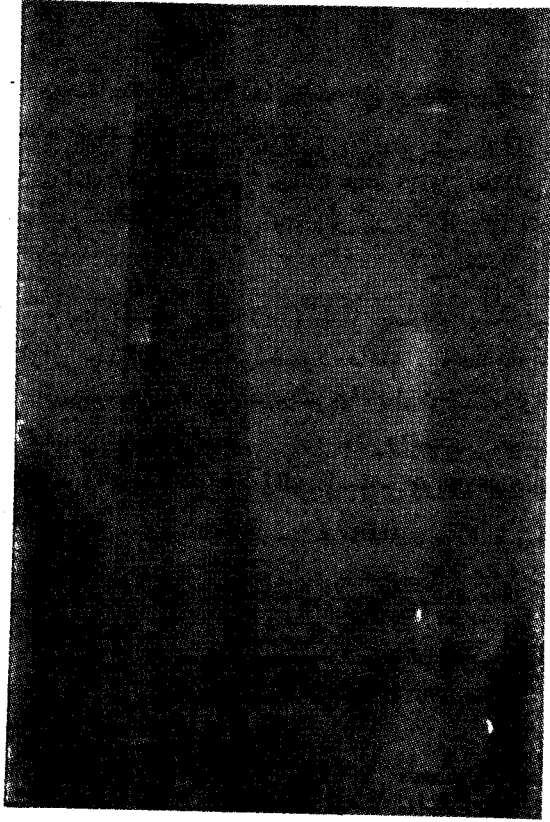
فى مدينة كوكتاون بانجلترا ، وفى حجرة الدرس
وهى حجرة مربعة الشكل قبيحة المنظر ، جلس
عشرون من التلاميذ والتلميذات - صامتين -
يستمعون للسيد « جرادجريند » وهو يحدث معلمهم
قائلا :

- أريد حقائق مادية ، علم هؤلاء الأولاد والبنات
الحقائق العلمية فقط يا سيدى ، لقد ربيت أولادى على
الحقائق وأريدك أن تربى هؤلاء الأطفال على الحقائق ،
فلا شئ أنفع لهم من الحقائق ..
هكذا كان يتحدث السيد « جرادجريند » ، رجل

الأعمال المعروف ومالك هذه المدرسة الصغيرة بينما وقف الى جانبه شاب أنيق مهذب ، لم يكن - حتى هذه اللحظة - قد شارك في الحديث .

وكان السيد جرادجريند قد بنى تلك المدرسة وجعلها أشبه ما تكون بتكوينه الجسماني . . . مربعة الشكل !! فقد كان هو مربع الجسم له رأس أصابع مربع الشكل وأصابع غليظة مربعة الشكل أيضا أما عيناه فكانتا أشبه ببثرين مربعي الشكل مظلمين حفرا في مقدمة رأسه الأصبع ، الذي فقد معظم شعره وبدا هذا الرأس الأصفر وكأنه على وشك الانفجار ، ربما من شدة ازدحامه بالحقائق !!

والسيد « توماس جرادجريند » - وهذا اسمه كاملا - لا يعترف بشيء في الحياة لا يندرج تحت قائمة الحقائق المادية ، فأى شيء لا يخضع للاحصاء العددي أو للقياس الحجمي أو الكمي ليس له وجود في رأى السيد « جرادجريند » ، وبالتالي . . . هو يرفض أن يفسح له مكانا في رأسه .



وبينما ظل الأولاد والبنات على صمتهم، استأنف السيد « جراد جريرند » حديثه :

- اننا لا نحتاج فى حياتنا هذه الا الى الحقائق ..
البنات رقم ٢٠ قفى ؟ اننى لا أعرف هذه البنات .. من تكون ؟

كانت البنات رقم (٢٠) بنتا جميلة لها عينان سودازان جميلتان وشعر أسود فاحم ، وعندما أشار إليها السيد جراد جريرند وأمرها بالوقوف ، وقفت وقد اكتسى وجهها بحمرة شديدة وانحنت تحية واحتراما وأجابت على سؤال السيد جراد جريرند قائلة :

- اسمى « سيسى جوب » يا سيدى !

فقال :

- أن « سيسى » هذا ليس اسما . لابد أن اسمك هو سيسيليا .

فقال البنات وهى لا تزال على انحنائها محمرة الوجه :

- ان أبى ينادينى « سيسى » يا سيدى .

فقال لها السيد « جراد جريرند » فى حزم قاطع :

- اذن فهو مخطىء . قولى له أنه يجب عليه ألا يناديك بهذا الاسم ثانية . فاسمك هو « سيسيليا جوب » . قولى لى يا سيسيليا .. ما هى صنعة أبيك ؟

- انه يعمل مدربا للخيل فى السيرك يا سيدى .

- فى السيرك ؟! آه يا عزيزتى ! اننا لا نحب أن نسمع شيئا عن هذا هنا . بالتأكيد هو يرمى الخيل عندما تمرض ، أليس كذلك ؟

- بلى يا سيدى انه يفعل هذا أيضا .

- اذن فهو طبيب ، طبيب بيطرى والآن يا « سيسيليا جوب » قولى لى ما هو الحصان ؟

فازداد احمرار وجه سيسى ولم تحمر جوابا ، فقال السيد « جرادجريرند » غاضبا :

- ان البننت رقم (٢٠) بنت غبية ، انها لا تعرف
مجموعة الحقائق المتعلقة بحيوان عادى ٠٠ سوف أسأل،
ولدا .

وتحرك الأصبع المربع فى الهواء وتوقف مشيرا الى
« بيتزر » ، وهو طفل أشقر الشعر أبيض الوجه ٠٠
فاتح لون العينين ، باختصار كل ما فيه كان شاحب
اللون أو أبيض ، أشار اليه السيد « جراد جريند »
وسأله :

- والآن يا بيتزر ٠٠ ما هو الحصان ؟

فأجاب بيتزر بشبات :

- حيوان ، يا سيدى . من ذوات الأربع ٠٠ يأكل
الحشائش أو الحبوب ، عدد أسنانه أربعون سنة ٠٠
يستقط شعره فى الربيع ، ويحتاج الى حدوة من الحديد
فى البلاد الرطبة ويعرف سنه من علامات فى فمه و٠٠

فقاطعه السيد جراد جريند موجهها الحديث الى

سيبى :

- البننت رقم (٢٠) هل سمعت هذا ؟ الآن قد
عرفت الحقائق التى يجب أن تعرفها عن الحصان .

لم يكن من الممكن أن يحمر وجه « سيبى » أكثر
من هذا ، فانحنت ثانية وجلست فى أدب . وهنا تقدم
الشاب الأنيق المهذب للأمام ٠٠ كان ضابطا فى الحكومة
وكان لا يتعامل هو الآخر الامع الحقائق ٠٠ تقدم وقال :

- أبنائى وبناتى ، استمعنا الآن للحقائق المتعلقة
بالحصان ، والآن - اصغوا الى ٠٠ اذا افترضنا أنكم
تريدون تجميل هذه الحجره فهل تراكم تضعون صورا
للخيل على جدرانها ؟

فأجاب نصف التلاميذ فى صوت واحد قائلين :

- نعم يا سيدى .

فحرك الضابط رأسه علامة عدم الموافقة وفى الحال
صاح النصف الآخر من التلاميذ :

- لا يا سيدى .

فقال السيد المهذب :

– لن تفعلوا ! بالطبع لن تفعلوا ٠٠ فهل رأيتم
أبدا خيولا تجرى على الجدران؟ هل رأيتم هذا؟!

أجابت بضعة أصوات خافتة بـ « نعم ، يا سيدى »
ولكنها غرقت وسط طوفان من الصياح بـ « لا ياسيدى ».

فقال الضابط :

– بالطبع لا ، فأنتم لم تروا مثل هذا من قبل
فالخيول التى تجرى على الجدران ليست أمرا واقعا .

فقال السيد جراد جريند مؤمنا باعجاب :

– هذا صحيح ، صحيح جدا .

واستطرد السيد المهذب قائلا :

– والآن أنتم جميعا ترون أننا يجب ألا نحتفظ
بالأشياء غير الواقعية . والآن ٠٠ اذا أردتم شراء
سجادة ، فأى نوع من السجاد تشترون ؟ هل تشترون
سجادة رسمت عليها صور أزهار ؟

أجاب الجميع – هذه المرة – « بلا يا سيدى » .

فقد تعلم التلاميذ أن هذه هى الإجابة الصحيحة على كل
أسئلة هذا السيد . ولكن صوتا واحدا – للحق كان
معه صوتين آخرين خافتين – أجاب بـ « نعم يا سيدى »
٠٠ كان هذا هو صوت « سيسى » ، وبسرعة قال السيد
المهذب :

– البنت رقم (٢٠) ، هل تشتريين سجادة رسمت
عليها صورة أزهار ؟!

فاحمر وجه سيسى وانهمت بشدة وهى تجيب
بصوت خافت :

– نعم يا سيدى ، فانا أحب الأزهار .

– ولكن الناس يسرون فوق السجاجيد ، فهل
تحبين أن تدهس الأحذية الغليظة أزهارك ؟ .

– ان الأحذية لن تؤذى الأزهار المرسومة ياسيدى،
فقط أنا أحب أن أتخيل السجادة بأزهارها وكأنها
هدية جميلة .

فصاح السيد المهذب :

- « أتخيل » ! ماذا تعنين بـ « أتخيل » ؟
يجب ألا تتخيلي أبداً ؟

وهنا تدخل السيد جراد جريند مقاطعاً بشدة
وغضب وقال :

- « سيسيليا جوب » ، أننى أمنعك أن تتخيلي أى
شئ .

وصاح السيد المهذب قائلاً :

- الواقع ، ثم الواقع ، ثم الواقع .

فرد السيد جراد جريند :

- نعم ، الواقع . ثم الواقع . ثم الواقع .

ثم استطرد السيد المهذب قائلاً :

- فى هذه المدرسة ، يجب أن تنسوا كلمة «الخيال»
عندما ترسمون . لا ترسموا خيولاً أو أزهاراً فعلى
الورق لا توجد هذه الأشياء ! وعندما تقرأون يجب أن

تقرأوا عن حقائق الواقع، وعندما تكتبون يجب أن تكتبوا
الحقائق . الحقائق ولا شيء غير الحقائق ، هل تفهمونها
هل تفهمين يا ابنتى رقم (٢٠) ؟ !

فأجابت البنت، وقالت :

- نعم ياسيدى .

ثم جلست ، كانت صغيرة وجميلة . ولم تكن تعتقد
أن عالم الحقائق المجرد من الخيال يمكن أن يكون عالماً
سعيداً .

الفصل الثانى

كان السيد « جراد جريند » يشعر بسعادة بالغة وهو يسير عائدا الى بيته فى هذا المساء فتلاميذ مدرسته سيصبحون عما قريب فى نفس ذكاء أطفاله هو شخصيا . ومن المؤكد أنه لا يوجد مربي يستطيع أن يتفوق عليه فى تربية أطفاله الخمسة .

بالطبع ، كان بيت السيد « جراد جريند » والذى يسميه « ستون لودج » يحتوى على حجرة للدرس . . . فى الحقيقة كانت هذه الحجرة هى السجن الخاص بأطفاله ، وهى أول مكان تخطو اليه أقدامهم بمجرد أن تتعلم كيف

تخطو ، ولو فتشنا فى ذاكرة أطفال جراد جريند عن أول ذكرى ، لوجدناها . . سبورة سوداء !! أن أطفال عائلة جراد جريند لا يعرفون شيئا عن قصة « الدببة الثلاث » ولكنهم - بالطبع - يستطيعون ترديد « الدب حيوان من ذوات الأربع له جسم ضخم وغطاء سميك من الفرو » ، وهم أيضا لم يسمعوا عن . . « الرجل الذى يحيا فوق القمر » . . يعيش فوق القمر ! . . أوه . . لا ! فالقمر - فى علمهم - صحراء جافة خالية مملوءة بالصخور والرمال . أما الشمس . . فهى ابدا لم تبتسم لأحد من أطفال عائلة جراد جريند ! وكيف لها أن تفعل !؟ . . انها مجرد كمية من الغازات الساخنة .

أما ستون لودج نفسه فكان منزلا مربع الشكل كبيرا ، يبعد ميلا خارج مدينة كوكتاون فى شمال غرب انجلترا ، ولم يكن به أى شىء خيالى . . فله ست نوافذ على كل جانب من جانبي الباب الأمامى ، وله اثنتا عشرة نافذة فى الخلف . . وكان منسقا ومنظما . . فهكذا يجب أن تكون بيوت السادة الوجهاء ، وكأى شىء فى حياة السيد جراد جريند ، كان ستون لودج واقعا لا خيالا .

السيد جراد جريند رجل يحب الحقائق فقط ، فقد
أزعجه جدا أن يسمع صوت موسيقى بينما هو يسير
فى طريقه الى بيته فى ذاك المساء، فالرجال ذوو الرؤوس
الصلبة يستمتعون بحياتهم أكثر بدون موسيقى ،
- هكذا كان يعتقد جراد جريند - ولهذا ضايقه صوت
الموسيقى ، كان الصوت يأتى من خيمة سيرك سليرى
التي بنيت عند أطراف المدينة ، وعند باب السيرك ٠٠
كان يقف سليرى نفسه ، رجل بدين يحمل صندوق
نقوده ويصيح :

- أسرعوا ٠٠ هلموا ٠٠ الخيل مستعدة - هلموا
٠٠ شاهدوا الأنسة جوزفين سليرى الشهيرة التي تركب
جوادها الأبيض واقفة على ظهره ٠٠ أسرعوا ٠٠ هلموا
٠٠ شاهدوا السيد جوب وهو يمتطى صهوة جواده ومعه
كلبه المدرب ميرى ليجز ٠٠ شاهدوا أيضا السيد
شيلدرز ٠٠ !

لم يتوقف السيد « جراد جريند » بالطبع فليس
عنده وقت يضيعه فى مثل هذه الأشياء التافهة .

كانت أعمال السيد جراد جريند قد جعلت منه
رجلا غنيا ٠٠ فقد كان يشتري الأواني المعدنية من
المصانع ويبيعها للمتاجر ، وكان العائد الضخم الذى
يربحه من تجارته هو الحقيقة الوحيدة التي لم تفشل
فى اسعاده أبدا ٠٠ الآن أصبح لدى السيد جراد جريند
عمال وموظفون يقومون بمعظم العمل ، وبالتالي توفر له
المزيد من الوقت لأشياء أخرى هامة . والحكومة القوية
الناجحة هي أحد هذه الأشياء الهامة التي يهتم بها
السيد جراد جريند ، فهو يود أن يصبح نائبا فى
البرلمان عن مدينة كوكتاون ٠٠ ولماذا لا يكون !؟ ٠٠ لقد
عاش حياته فى هذه المدينة ، كما أنه قد بنى وأنفق
على المدرسة الجديدة ، وبخبرته كرجل أعمال يمكنه أن
يكون نائبا ممتازا ، وهناك أيضا لا ننسى ميزة مؤكدة
وهي أن البرلمان فى حاجة لرجال واقعيين يؤمنون
بالحقائق فقط .

ان توماس جراد جريند رجل أعمال ناجح وصعب
المراس (هكذا يقول سكان كوكتاون) وليست هناك
متعة أو لهو فى حياة السيد جراد جريند ٠٠ ولأن

- اننى . لم أفاجأ فى حياتى الى هذه الدرجة
من قبل . . ماذا تفعلان هنا ؟!

فاجابت لويزا بنبرة فيها تعهد :

- كنا نود أن نرى كيف يكون السيرك ؟

- كيف يكون ؟! . . سيرك ؟!

- نعم يا أبى !

خيم الحزن والأسف على وجهى الطفلين ، خاصة
لويزا ، وان كان هناك بريق ينبعث من عينيها بريق غير
مستقر ، كأن بهما نارا جائعة . . عجيبة . . تريد أن
تبقى على نفسها مشتعلة بغير وقود يحترق !

كانت لويزا فتاة فى الخامسة عشر أو السادسة
عشر من عمرها . . امرأة تقريبا . . وكانت جميلة ،
وكان أبوها يعرف ذلك وكان يقول فى نفسه : أنها ربما
عانت كثيرا بسبب جمالها ، لو أن شخصا غيره تولى
تربيتها .

انعطف الطريق الى اليسار وأصبح يمر خلف الحيمة
الكبيرة ، وهناك رأى السيد « جراد جريند » ثلاثة ،
أو أربعة من الأطفال خلف الحيمة . . كانوا . . نعم ! . .
كانوا يسترقون النظر من خلال ثقب صغير فى الحيمة
ليشاهدوا ما يحدث داخل السيرك !

فقال « جراد جريند » فى نفسه : « يالهؤلاء
الأشقياء ! انهم لم يذهبوا الى المدرسة ظهر اليوم ،
سوف أقرب منهم ، ربما عرفتهم . . »

وبالفعل عرف منهم اثنين على الفور . . ابنته
« لويزا » وأخوها « توماس الصغير » . . فصاح
جراد جريند مناديا عليهما فى حدة :

- لويزا ! توماس !

فاستدار بسرعة وجهان صغيران تكسوهما حمرة
الحجل . . نظرت لويزا لأبيها فى تحد صبياني بينما لم
يرفع « توماس » رأسه من الأرض لشدة خوفه ، وصرخ
السيد « جراد جريند » :

اخيرا قال السيد جراد جريند :

- توماس .. اننى أوجه اليك اللوم على هذه ..
هذه المغامرة ! ان فتى فى مثل تربيتك وتعليمك كان
الأحرى به ألا يحضر أخته لمثل هذا المكان .

فردت لويزا بسرعة :

- أنا التى أحضرتة يا أبى .. فقد طلبت منه أن
يأتى معى .

- انى جد حزين لسماعى هذا . ولكن هذا ليس
عذرا يا توماس ، وفى نفس الوقت فان موقفك أصبح
أشد سوءا يا لويزا .

ف نظرت لويزا فى وجه أبيها ثانية . هذه المرة
بعينين غير دامعتين . بينما استأنف أبوها الكلام
قائلا :

- أنت يا توماس ! .. وأنت ! ان كل المعارف
مفتوحة أمامكما وتربيتكما تربية كاملة ، وكل حقائق
الكون فى متناول أيديكما .. ثم تأنيان الى هنا ! ..
أنت وتوماس ! .. الى السيرك !! أنا لا أستطيع أن
أفهم هذا .. لا أستطيع .

- كنت متعبة ، منذ وقت طويل وأنا أشعر
بالتعب .

- متعبة ؟ من أى شىء ؟

- لا أعرف .. ربما من كل شىء .

- انك تتكلمين كطفل صغير .. لا أريد أن أسمع
منك كلمة أخرى .

وساروا - ثلاثتهم - حوالى نصف الميل فى
صمت ، ثم تساءل السيد جراد جريند قائلا :

- ترى ماذا يقول أفضل أصدقائك عنك عندما
يعرفون ؟ ألم تفكرى فى هذا ؟ ماذا يقول السيد
« باوندر باى » ؟

ما أن سمعت لويزا أباهما ينطق بهذا الاسم حتى
نظرت اليه بسرعة نظرة ذات مغزى ، ثم أشاحت بوجهها
بعيدا . ولم يلاحظ أبوها أى شىء .. بل ردد سؤاله :

– ماذا يقول السيد « باوندرباى » هه ؟ ماذا يقول ؟

وأخذ يردد نفس السؤال طوال الطريق حتى وصلوا الى ستون لودج ، ليجدوا « باوندرباى » فى انتظارهم .

كان السيد « باوندرباى » يجلس بجوار المدفأة عندما دخل السيد « جراد جريند » وبصحبته ابنته « لويزا » وابنه « توماس » ، وجلس جراد جريند على مقعد بجوار المدفأة أيضا . ونظر باوندرباى الى لويزا نظرة كأنه يقول بها (هانذا رجلك .. باوندرباى) .

كان السيد « باوندرباى » رجلا ضخيم الجسم ، فظا .. على الصوت و .. غنيا جدا . فقد كان يملك أكبر مصنع للنسيج والملابس الجاهزة فى « كوكتاون » وهو أيضا صاحب المصرف الوحيد وهو – على حد تعبيره – رجل عصامى بنى نفسه بنفسه . وقد اعتاد على الصياح متباهيا – على هراى ومسمع من الناس – بقوله :

– لم يكن عندى حذاء ارتديه .. كنت حافيا يا سيدى ، ولم يحمل جيبى مليما واحدا .. لأنه فى الحقيقة لم يكن لى جيب ، يا سيدى . رمتنى أمى فى الشارع وأنا ابن الرابعة من عمري .. أتسول فى الشارع طيلة النهار ، وحين يأتى الليل .. أنام على أرصفته . لم أذهب فى حياتى الى مدرسة ، ولكنى .. علمت نفسى بنفسى ، كل هذا ولكن – أنظر الى الآن يا سيدى .. اننى رجل عصامى .

كان السيد « جوزيه باندرباى » – وهذا هو اسمه كاملا – أحمر الوجه ، صلب الرأس ، فى الثامنة والأربعين من عمره وان كان يبدو أكبر سنا من هذا .. على الأقل بعشر سنوات ، وله صوت جهير كأنه صوت الرعد . ولأن رأسه أصلغ خال تماما الا من شعيرات قليلة ، فقد اعتاد الناس فى كوكتاون أن يسخروا منه – فيما بينهم – بقولهم أن (صوته الرعدى قد أطاق بشعره منذ زمن بعيد) .

نظر « باوندرباى » الى « لويزا » ، ولكنه عندما تكلم .. تكلم الى « توماس » قائلا :

- انك لا تبدو سعيدا الليلة يا « توماس » .

فقالت « لويزا » :

- كنا نحاول مشاهدة السيرك ، ولكن أبى أمسك بنا .

فصرخ ابوها :

- ان مشاهدة السيرك عمل مشين مثل .. مثل قراءة الشعر تماما ! ألا توافقينى على هذا يا مسز « جراد جريند » ؟

فقالت زوجته :

- بلى ؛ بالتأكيد . اننى لا أستطيع أن أفهمكما يا لويزا .. أنت وتوماس . فلماذا تذهبان لمشاهدة السيرك ؟! أليس لديكما ما يكفى من العمل فى حجرة الدرس ؟ : كما تعرفان أن رأسى المسكين مصاب بالصداع دائما فلا يمكنه تذكر نصف ما تعرفان من الحقائق والعلوم .

فقالت لويزا بتحد :

- ان هذا هو السبب !

فقالت لها أمها :

- لا يا لويزا . ليس هذا هو السبب ، أنت تعلمين هذا ! .. والآن اذهبا الى حجرة الدرس وذاكرا شيئا ، لكم كنت أتمنى أن أحظى بمثل فرصتكما فى التعليم .

لم تكن السيدة « جراد جريند » متعلمة حقبا ، فهى لا تعرف الا القليل من حقائق الكون ، وقد تزوجها السيد « جراد جريند » لأن - على حد تعبيره - الرأس الفارغ ، أفضل كثيرا من رأس تملؤه الخيالات والأوهام .

أخيرا ، أصبح السيدان الوجيهان وحدهما .
فقال السيد جراد جريند مخاطبا صديقه :

- باندرباى ، اننى قلق للغاية - فأولادى تلقوا أحسن تربية وأحسن تعليم .. أقصد أنهم تعلموا كل الحقائق العلمية تقريبا ، ولكن .. الآن أشعر أن شيئا آخر بدأ يزحف على رأسيهما ، وانى لأتساءل ما الذى يدفعهما لزيارة هذا السيرك ؟ ما رأيك ؟

وفى أثناء انتظاره ، ذهب باوندرباى الى حجرة
الدرس ، حيث كانت « لويزا » و « توماس الابن »
والصغار الثلاثة الآخرون ، أطفال عائلة جراد جريند ،
وكانت الصغيرة « جان » قد رقدت فوق صفحة مملوءة
بالصور .

قال السيد باوندرباى :

— كل شىء على مايرام الآن ، فقط لا تذهبا للسيرك
ثانية وسيسامحكما أبوكما هذه المرة والآن يا لويزا .
ألا أستحق قبلة على هذا ؟ .. أليس كذلك ؟

فقدمت له لويزا خدها ولكنها لم تنظر اليه بعينيها
وقالت :

— يمكنك أن تأخذ واحدة يا سيد باوندرباى !

فقبلها باوندرباى وهو يقول لها :

— أنت دائما سيدتى الصغيرة ، الى اللقاء .

وبمجرد أن خرج .. أخذت لويزا تمسح خدها

فأجاب باوندرباى :

— ربما تكون الأحلام

— أوه ، آمل ألا يكون هذا ! ولكن .. بالفعل ..
ربما تكون على حق .

— ان أحلام اليقظة شىء سىء بالنسبة لآى انسان ،
ولكنها تصبح شيئا مرعبا اذا كان الأمر يتعلق بفتاة
مثل لويزا . انى أتساءل عما اذا كان أحد ما قد تحدث
معها فى هذه الأمور .. ألا يوجد طفل من السيرك
ملتحق بمدرستك ؟ .

فامتقع وجه السيد « جراد جريند » وأجاب :

— نعم ، « سيسيليا جوب » لقد رأيتها اليوم
فقط ..

فأخذ السيد باوندر باى شهيقا عميقا ثم قال :

— حسن ، أطردها يا جراد جريند .. أطردها فى
الحال .

— الحق ما تقول ، فلنذهب سويآ لأبيها ..
الآن ، فقط انتظرنى ريشما أحضر العنوان من مكتبى .

لتمحو أثر القبلة ، وأخذت تحسكه بمنف حتى أصبح
محمرا جدا ، فداعبها أخوها توماس قائلا :

- سوف تحفرين حفرة فى خدك يا لو .

- لو أنك قطعت هذه البقعة التى قبلها بسكينك

يا توماس ، لما وجدتني أتالم أو أبكى .

الفصل الثالث

أسرع كل من السيد باوندرباى والسيد جرادجريند
بالخروج فى اتجاه كوكتاون . . . كانا فى طريقهما الى
شارع (بود) حيث يقيم السيد جوبه والد سيسيليا .

ان أقبح حقائق الواقع والمتعلقة بكوكتاون . . هو
كوكتاون نفسها ، فاذا كنت تتصور أن بهذه المدينة أى
مظهر من مظاهر الجمال ، فقد جانبك الصواب بالتأكيد
. . مبانيتها بنيت بالقرميد الأحمر . . ولكن هذا كان
منذ زمن طويل فقد استحال اللون الأحمر الى لون
أسود داكن قبيح بفعل الغبار ودخان المصانع . فمدينة



منظر للبحيرة

كوكتاون مدينة صناعية . . مدينة آلات ضخمة ومداخن مرتفعة وسحب كثيفة من الدخان الأسود تملأ الجو . . هكذا هي كوكتاون . . وربما هكذا ستكون . . للأبد . . وفي كوكتاون توجد ترعة ضيقة مياهها سوداء اللون ، ونهر صغير . . أحمر . . وهذا اللون الأحمر هو بفعل النفايات وبقايا الأصباغ التي تلقى بها مصانع النسيج في هذا النهر .

وفي مدينة كوكتاون عدة شوارع واسعة . . كلها متشابهة تماما ، وفيها أيضا مجموعة من الشوارع الضيقة المزدهمة بالمنازل وكلها - أيضا - متشابهة تماما . حتى سكان هذه المنازل . . كلهم متشابهون تماما ، فكلهم يبدأون العمل في الساعة صباحا تماما ، وفي المساء يعود الجميع الى بيوتهم في الساعة مساء تماما . وبالنسبة لهؤلاء الناس فان اليوم يشبه الأمس . . يشبه الغد ، وهذا العام كالعام الماضي - كالعام القادم .

وكل هذه الحقائق . . لا تدهش أحدا ، فالحياة في كوكتاون تعنى العمل ، العمل والعمل وحده يعنى

الحياة واستمرارها .. ربما ليوم آخر أو .. لعام آخر .

ونعود لوصف أبنية هذه المدينة ، فكوكتاون بها ثمان عشرة كنيسة مبنية بالقرميد الأحمر وكلها متشابهة ، والمستشفى - المبنى بالقرميد الأحمر - يشبه السعجن - المبنى أيضا بالقرميد الأحمر - وأهم أوجه الشبه هو أنه داخل المباني .. وداخل عقول سكانها لا يوجد مكان سوى لحقائق الواقع .. والواقع فقط .

وبرغم أن كوكتاون كانت مدينة واقعية ، إلا أنها كانت تعاني من بعض المشاكل ، فالعمال وأسرهم لا يذهبون مطلقا للكنيسة ولا في أيام الآحاد ، وهم يفرطون في الشراب .. بالطبع لا أقصد شرب الشاي أو القهوة ! .

ولهذا كان أعضاء البرلمان يطالبون دائما بإصدار القوانين قائلين : « نحن نحتاج لقوانين صارمة .. سوف نجعل هؤلاء الناس يذهبون للكنيسة بقوة القانون ،

وبقوة القانون - أيضا - يجب عليهم ألا يفرطوا في شرب الخمر » .

ونستطيع القول .. أن سكان هذه المدينة كانوا يشبهون « لويزا » أو « توماس الابن » بوجه أو بآخر . فشيء هام قد ضاع من حياتهم .. بالتأكيد ليس الواقع ، فهم يعانون تخمة في هذا الشأن ، فهل ما ينقصهم هو .. الخيال ؟ .. ربما كان هذا الشيء المسمى بأحلام اليقظة أو .. ربما كان المتعة والسعادة الموجودة في (سيرك سليري) .

مر السيد بارنديرباي والسيد جراد جريند بالسيرك أثناء سيرهما ، ولكنهما لم يلتفتا إليه .. وأخيرا .. وصلا لنهاية شارع (بود) حيث يعيش السيد « جوب » وابنته .. « سيسيليا » .

فجأة ظهرت « سيسيليا جوب » وهي تجرى بالقرب من ناصية الشارع، فعرفها السيد «جراد جريند» على الفور وناداهما :

- أهلا .. انتظري .. نحن نريدك ! .

فاستدارت البنت رقم (٢٠) وقفلت راجعة وقالت
للسيد « جراد جريند » :

- نعم ، يا سيدى

- نحن نبحث عن أبيك ، السيد « جوب » ، فهلا
صحبتينا - أنا وهذا السيد المهذب - الى حيث يسكن
أبوك ، فاننا نود التحدث اليه .

- أفعل يا سيدى ، وشكرا لك . سيدى . . اذا
سمعت صوت كلب فلا تنزعج فهو ليس الا (ميرى
ليجز) كلب أبى المدرب وهو أبدا لا يؤذى أحدا .

ولكن . . ميرى ليجز لم يكن بالبيت ، ولا السيد
جوب أيضا . فقالت سيسى :

- أرجوك . . استرح لحظة يا سيدى ، سوف
أذهب بسرعة وأحضر أبى .

وبعد أن أحضرت مقعدين للسيدتين ، جرت مسرعة
لتستدعى أباهما .

بعد دقيقة من هذا ، دخل شاب الى الحجره ، لم

يكن فارغ الطول ولكنه كان يبدو قويا جدا تبرز
عضلات صدره وذراعيه من تحت سترتيه ، انه السيد
« تشيلدرز » رجل سيرك سلىرى القسوى . دخل
« تشيلدرز » وقدم نفسه للسيدتين . ثم سالهما :

- هل تودان مقابلة السيد « جوب » ؟

فاجاب السيد « جراد جريند » قائلا :

- أجل ، وقد ذهبت ابنته لتستدعيه ، ولكننا فى
الحقيقة ليس لدينا ما يكفى من الوقت لانتظاره ، فهل
تتكرم وتبلغه رسالة منا ؟

وعقب السيد « باوندرباى » قائلا :

- نحن قوم نقدر قيمة الوقت ، بينما لا يعرف
مثلك قيمته أيها الشاب .

فرد عليه « تشيلدرز » بضيق :

- اذن لا تضيع وقتنا يا سيد . .

ثم استدار للسيد « جراد جريند » وخاطبه فى
لهجة ودية قائلا :

- ٠٠ ان والد الفتاة قد ذهب يا سيدى .

- ذهب !؟ الى أين ذهب ؟

- لقد ترك السيرك يا سيدى ، ففى خلال الأسبوع
الماضى تضائل نجاحه ودرجة قبول المشاهدين له . .
فرحل .

فقال السيد « باوندرباى » :

- يبدو أننا بين صنف غريب من الناس
يا « جراد جريند » ، لم يعد « جوب » محبوبا من
الجمهور لهذا هرب !! والآن ، ان رجلا مثلى أنا ارتفع
بنفسه . .

قاطعه « تشيلدرز » قائلا بسخرية :

- اذن فانزل بها !

وتساءل السيد « جراد جريند » :

- ولكن ماذا عن الصبية الصغيرة . . ابنته ؟
انه بالطبع لم يتركها ، أو تراه فعل !؟
- أخشى أن هذا صحيح يا سيدى ، رغم أنه وابنته

كانا شديدى التعلق ببعضهما البعض . . ولكن . .
« جوب » أصبح عجوزا لا يقوى على العمل بالسيرك ،
فأصبح يشعر بالحجل من نفسه .

وهنا قال « جراد جريند » مندهشا :

- أهكذا !؟ ترك ابنته وهرب !؟

أصاب السيد جراد جريند الذهول لأنه برغم كونه
رجلا صلب الرأس قوي الشكيمة كان أيضا رجلا يعرف
معنى العائلة . . رجل عائلى . . ان صح التعبير !
أجابه تشيلدرز قائلا :

- لقد كان خجله شديدا لدرجة لم يستطع معها
أن يبقى بجرار ابنته ، فقد كان يحبها لدرجة أنه . . .

وهنا صاح باوندرباى مقاطعا بصوته الرعدى :

- لدرجة أنه تركها وهرب . حسنا . . هذا شيء
طيب ، سوف أخبرك بشيء أيها الشاب ، أننى أفهم مثل
هذه الأشياء . . قد تندهش . . ولكن أمى أنا أيضا
تركتنى صغيرا وهربت .

وقاطعه « جراد جريند » :

- لقد كان هذا رأيا صائبا

- آه .. أجل ، وقد سعد أبوها جدا حين التحقت
بالمدرسة هنا ، وبالطبع نحن سنرحل عن كوكتاون
الشهر القادم و ...

وتمهل تشيلدرز قبل أن يكمل عبارته للنهائية
ونظر في عيني السيد « جراد جريند » ثم استأنف
حديثه :

- اذا كنت قد جئت هنا لتساعدنا يا سيدى ..
اذن .. فان السماء قد وهبتها حظا سعيدا .

- حسن ، ان مدرستي مخصصة لأطفال مدينة
كوكتاون وقد جئت هنا لأخبر السيد جوب .. أننا ..
لا نريد أحدا من السيرك .. ولكن الآن .. اذا كان
أبوها حقيقة قد تركها ورحل فربما أمكن ..

وقطع السيد جراد جريند حديثه ونظر للسيد
« باوندرباى » ثم قال :

- لست مندهشا يا سيدى فقد فعلت والدتك
الشيء الصواب ، ولكن أرجوك لا تصرخ بصوت عال
هكذا فجدران هذا البيت المتهالك قد تسقط لو أنك
تحدثت بمثل هذا الصوت ثانية ..

ثم استدار تشيلدرز لجراد جريند وأكمل حديثه
قائلا :

- .. كان جوب حزينا طوال اليوم وقد رحل قبل
أن تعود « سيسى » من المدرسة وأخذ معه كلبه المدرب
(ميرى ليجز) . ان « سيسى » لن تصدق أنه رحل
وتركها .

فسأله جراد جريند :

- ولم لا ؟

- لأنهما كما أخبرتك كانا شديدى التعلق
بعضهما البعض ، ولم يفتربا من قبيل أبدا ..
يالمسكينة سيسى اننا لم نعلمها أى شيء فلم يكن جوب
يريد لها العمل فى السيرك كان يريدنا أن نتعلم ولهذا
فانها ...

والرحمة أيضا ! كانوا صنفا من الناس يجب مساعدة
الآخرين .. دون حساب للتكاليف ..

أخيرا وصل السيد « سليرى » ودخل الغرفة
وقال مخاطبا السيد جراد جريند :

- هل سمعت عن رحيل السيد جوب وكلبيه ،
يا سيدى ؟ ألهذا أنت هنا ؟ .. بخصوص البنت ؟

- أجل ولسوف أقدم اقتراحا عندما تعود .

- أنا سعيد بهذا يا سيدى ، فأنا لا أريد أن
أتخلص من البنت بأية طريقة .. لا .. فهناك ما يشبه
القانون يحكمنا هنا فى السيرك .. اننا جميعا نساعد
بعضنا البعض .

- آه ، أجل .. بالطبع .

استأنف « سليرى » حديثه قائلا :

- ان خطتك من أجل مستقبل « سيسى » قد تكون
خيرا من خطتى . اذا بقيت معنا فسيكون عليها أن تعمل
فى السيرك وسيكون عليها أن تبدأ من القاع وأبوها لم
يكن يريد ..

- « باوندرباى » .. ألا تنصحنى بشيء ؟ ..
أيها الشاب هل تمنع فى تركنا وحدنا للحظة ؟

فخرج شيلدرز ووقف امام باب الغرفة حيث كان
باستطاعته أن يسمع جزءا من الحوار الدائر بين
السيدتين :

- لا .. لا أقول لك .. لا .. يا « جراد جريند » !

- .. مثلا للويزا .. نهاية حياة شيطانية
يا باوندرباى وانى لأمل أن ..

فى هذا الوقت كان بقية أفراد السيرك قد تحلقوا
خارج باب الغرفة بجوار تشيلدرز . كان خليطا عجيبا
من البشر .. مدربو خيول ومروضو حيوانات متوحشة ،
راقصون ومغنون .. نساء بدينات وأخريات نحيفات ،
بعضهن جميلات وبعضهن قبيحات جدا ، ولكنهم جميعا
يبدون - بطريقة ما - متماثلين ، فهناك سمة واحدة
تميزهم جميعا .. البسطة والرقة .. رقة كرقة
الأطفال ، ومن عيونهم كانت تطل نظرة ملؤها الأمانة ..

في هذه اللحظة عادت سيسى ودفعها الواقفون
بالخارج الى داخل الغرفة ثم عادوا وتحلقوا حول
الباب .

كانت سيسى تبكي ودموعها على خديها وهي
تقول :

- آه يا أبى العزيز .. يا أبى الطيب ! ماذا
عساك ستفعل بدونى ؟ كم ستكون قليل الحيلة ؟!

وهنا صرخ السيد باوندرباى قائلاً :

- اسمعوا جميعا .. اننا نضيع الوقت هكذا ،
ان أمى تركتني وهربت ووالد هذه البنت فعل نفس
الشيء .. والحقائق واضحة .. ان أبوها قد هرب
ولن يعود ثانية ولن تراه مرة أخرى .. !

فقال أحد الواقفين خارج الغرفة :

- من يكون هذا ؟ هل يعتقد هذا الشخص أنه
يعرف كل شى ؟ .

وصاحت النساء :

- ياللعار .. انه انسان متوحش فظ !

فاقترب « سليرى » من « باوندرباى » وقال له :

- ان عشيرتى .. هؤلاء ، ليسوا مؤذنين بما فيه
الكفاية ، ولكن النافذة مفتوحة يا سيدى وأخشى ان أنت
تفوهت بكلمة أخرى فلربما قذفوا بك من خلالها ولهذا
.. خذ بنصيحتى والزم الصمت .

أخذ السيد « باوندرباى » بالنصيحة ولكن وجهه
كان يتميز من الغيظ . بعد هذا قال السيد جراد جريند :

- حسن ، لقد ذهب الرجل ، قد يعود ثانية ..
لكننا لا نعلم متى . أعتقد أننا جميعاً نتفق على هذا
الرأى .

فاجاب « سليرى » :

- أجل يا سيدى ، هذا صحيح

لقد كنت قررت أن أطرد سيسىليا جوب من
مدرستى ، ولكن الواقع قد تغير الآن ، انها لا تنتمى
للسيرك لأن أباهما قد تركها ، وأنا على استعداد لأن
أرعاهما وأعلمها اذا وافقت .. فسيكون عليها أن تأتى

معى الآن ، كما سيكون عليها ألا تراسل أيا منكم بعد
الآن سيداتى وساداتى ، وهذا كل ما عندى لأقوله .

فقال « سليرى » :

– ان هذا كرم وعطف منك يا سيدى ، والآن جاء
دورى لأقدم عرضى ، ثم بعد هذا تتخذين قرارك
يا سيسيليا ، اذا اخترت البقاء معنا فسوف تعيشين
مع « ايما جوردون » وأنت تعرفين أى نوع من العمل
سيكون عليك أن تتعلميه وتعرفين أى نوع من الحياة
ستعيشين .. أعتقد أن هذا كل شيء ..

فقال جراد جريند :

– هذا عدل جدا .. تذكرى يا آنسة « جوب »
ان تعليم الفتاة شيء هام وأبوك كان يريد لك أن تتعلمى
.. أليس كذلك ؟ يجب أن تفكرى فى هذا .. ثم
تقررى وكونى واثقة أن قرارك سيكون بعد تفكير .

توقفت « سيسى » عن البكاء للحظة ، ولكن فجأة
اندفع الدمع من عينيها غزيرا وقالت :

– اذا عاد أبى ، أريد أن أكون فى انتظاره ،
والا كيف .. كيف سيجدنى بعد هذا ؟

فقال السيد « جراد جريند » بهدوء :

– لا تقلقى بهذا الخصوص يا « جوب » فأبوك
سيستطيع بسهولة أن يهتدى لسيرك السيد سليرى .
والسيد سليرى سوف يخبره أنك فى بيت السيد
« توماس جراد جريند » وأنا « توماس جراد جريند »
من وجهاء كوكتاون كما أنى معروف جدا . وبالطبع لن
يمكننى أن احتفظ بك لو أن أباك طلبك .

وطوال العشر دقائق التالية انهمرت دموع غزيرة
على خدى سيسى ، ولكن قبلات كثيرة أيضا طبعت على
خدها ، وساعدت فى كفكة الدموع . وأخيرا أصبحت
سيسى مستعدة بسلتها الصغيرة التى تحوى ملابسها
وتتابعت الأصوات .. « مع السلامة يا سيسيليا » ..
« وداعا سيسى » .. « لا تنسينى يا سيسى » !

ثم كانت الكلمات الأخيرة .. قالها السيد سليرى
للسيد جراد جريند :

– انها لن تنسانا يا سيدي ، فنحن نسعد الناس
.. نسيهم أحزانهم .. هذا هو عملنا فالناس يجب أن
يجدوا من يسرى عنهم ، انهم لا يستطيعون أن يعملوا
طول الوقت !

وسار السيد جراد جرند والسيد باوندرباي
مبتعدين وبينهما سارت البنت زقم (٢٠) ..

الفصل الرابع

لم يكن السيد « باوندرباي » متزوجا ، لهذا
كان يستخدم مديرة لمنزله .. « مسز سبارسيت »
تعمل كمديرة منازل في الحقيقة ، ولكنها كانت سيدة
تنتمي لعائلة كبيرة غنية ، الا أن السيد سبارسيت
زوجها توفي شابا ثم ما لبث أن دب الخلاف بين مسز
سبارسيت وعائلتها فغادرت منزل العائلة وكان لزاما
عليها أن تجد عملا .

وكان السيد « باوندرباي » « ومسز سبارسيت »
يشكلان ثنائيا غريبا وعجيبا من البشر فالسيدة كانت

فخورة بماضيها وأصلها العريق في حين أن حاضرها
يثير خجلها وحزنها ، أما السيد فدواعى افتخاره هي
أنه كان فقيرا وضيعا فى يوم من الأيام . . . وقد اعتاد
أن يقول لأصدقائه :

– لقد ارتفعت من الحضيض الى هذا المستوى
الذى أعيش فيه بمجهودى وحدى ، أما مسز
« سبارسيت » فبرغم كل الفرص التى تمتعت بها فانها
وصلت فى النهاية الى لا شيء ؟

عندما غادر السيد باوندرباى والسيد جراد جريند
(بود ستريت) أخذوا سيسى الى بيت السيد باوندر باى
ونامت هناك تلك الليلة ، فقد كان على السيد جراد
جريند أن يعد لها غرفة فى ستون لودج قبل أن تنتقل
اليه .

وفى الصباح التالى ، قال السيد « باوندرباى »
للسيدة « سبارسيت » :

– هذه البنات ستنتظر هنا يا « مدام » حتى يحضر
« توم جراد جريند » ، اننى قلق لهذا الوهم الغريب
فالفكرة ليست فى صالح « لويزا » على الاطلاق .

– آه يا سيدى . . . انك أب آخر للآنسة لويزا

– مدام . . . قولى أب آخر « لتوم الابن » فهذا
محتمل فعن قريب سيعمل عندى فى المصرف وسيأتى
ليعيش معنا . قولى لى يا (مدام) هل تعرفين شيئا
عن لاعبى السيرك هؤلاء ؟!

– لقد تعلمت القليل عن الحياة الوضيعة . . . منك
يا سيدى ؟

فضحك باوندرباى وقال :

– أجل . . . أجل ، بالطبع ، فانت قد ولدت
وعشت فى القصور ، أما أنا فولدت فى الشارع .

– هذا صحيح يا سيدى ، فانى ولدت فى القصور
وفى رفاهية أما أنت ف . . .

فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل السيد
« جراد جريند » ومعه لويزا ، فتصافح السيدان
وطبع السيد « باوندرباى » قبلة على خد « لويزا » .
ثم استدعيت « سيسى » التى انحنت تحية لكل الموجودين

•• ثم بدأ السيد « جراد جريند » الحديث قائلاً
« لسيىى » :

– حسن يا آنسة « جوب » ، لقد قررنا لك
مستقبلك • سوف تعيشين فى بيتى وتذهبين الى المدرسة
كل يوم • لعلك لا تعرفين أن السيدة زوجتى مريضة
وعلى هذا فيمكنك الاعتناء بها فى الأيام التى لا تذهبين
فيها الى المدرسة • لقد أخبرت الآنسة « لويزا » – هذه
هى الآنسة « لويزا » – عن حياتك السابقة فى السيرك
•• هذه الحياة انتهت الآن ويجب عليك ألا تتحدثى
عنها ثانية فالآن يجب عليك أن تبدأى فى تلقى العلم
وقولى لى •• ألا تعرفين أى قدر من الحقائق الواقعية
يا « جوب » •• ؟

فأجابت سيىى وهى تنحنى :

– لا يا سيدى •
– انى سوف أغير هذا الوضع بسرعة •
ثم اقترب من سيىى أكثر وقال بصوت خافت :
– هل تستطيعين القراءة يا جوب ؟

– أوه ! أجل يا سيدى ، فأبى لم يكن يحسن
القراءة •• ولهذا فقد اعتدت أن أقرأ له •• لقد كانت
أسعد أوقاتنا تلك التى كنا نقضيها معا فى القراءة •

– وماذا كنت تقرأين ؟

– قصصا يا سيدى •• قصصا رائعة ، عن الجنيات
الطيبات والجنيات الشريرات ، وعن « روبنسون كروزو »
و « جاليفر » و « الملك العارى » •• آه يا سيدى
وكم كنا نسرح ونسبح فى الخيال !

– هيه •• هذا يكفى • يجب ألا تسرحى ثانية
يا جوب •• أبدا • ان هذا لجد خطير يا باوندرباى ان
الضرر قد وقع بالفعل ويجب أن أبدا فى الحال فى
اصلاحه !

فقال باوندرباى :

– لقد حذرتك يا جراد جريند •• لقد حذرتك
بالأمس • انك مقدم على فعل لم أكن لأقدم عليه ، ولكن
هذه مشكلتك •• اذن استمر • اذا كنت قد عقدت
عزمك فتقدم •

بعد هذا بقليل أخذ السيد « جراد جريند »
و « ابنته » و « سيسيليا جوب » الى « ستون لودج »
وطوال الطريق لم تنطق لويزا بكلمة واحدة .. طيبة
أو غير طيبة ، بينما لم يكف السيد جراد جريند عن
ترديد قوله : لا تسرحى يا جوب .. لا تسرحى أبدا !!

« لا تسرح أبدا » .. هذه الجملة الصغيرة ربما
كانت القانون الذى يحكم حياة السيد جراد جريند ،
وهى أيضا سر تربيته .. فما دام الانسان يستطيع أن
يجمع وي طرح وأن يضرب ويقسم .. اذن فهو يستطيع
القيام بأى شئ آخر .. اذن فلا أحد يحتاج أن يسرح
بخياله .. تلك كانت فلسفة السيد « جراد جريند »
ولم تكن غريبة عليه ، أما الغريب حقا فهو أن سكان
(كوكتاون) كانوا يوافقون السيد جراد جريند على
فلسفته هذه . اذن فلماذا تمتلئ مكتبات المدينة بالكتب
والقصص الخيالية ؟ ان هذا السؤال كان يؤرق السيد
جراد جريند ويعكر عليه صفو حياته ان الناس
يستطيعون القراءة .. وهم يقرأون بالفعل قصصا
عن الجن ، وهم يستمتعون بمغامرات روبنسون كروزو

وجاليفر ويسرحون بخيالهم معهم ، وينفعلون بهم
فرحا وحزنا .

لكن بالطبع لا مكان لهذه الكتب فى مكتبة بيت
السيد جراد جريند ، ولويزا وتوم الابن لا يعرفان
شيئا عن قصص الجان أو عن مغامرات الأبطال .
وقد دار هذا الحوار بين الأخوين ذات مساء بعد انتهاء
العمل فى أحد الأيام بغرفة الدرس ، قال توم :

- لقد تعبت من هذه الحياة يا لو .. اننى
أكرهها .. أكره الكل ما عداك يا لو .

- انك لا تكره سيسى يا توم .. أليس كذلك

- لقد فرض علينا أن نتأديها ب جوب .. وأنا
أكره هذا ، وأعتقد أنها تكرهنى .

- لا انها لا تكرهك يا توم .. أنا واثقة من هذا

- بل أعتقد أنها تكرهنا جميعا ، اننا نجعلها
تمرض قبل الأوان ، لقد بدأ السقم يبدو عليها بالفعل

- ان دروسها تتعبها ..

أنت المتعة الوحيدة التي لى ، بل ان بإمكانك أن تجعلى
هذا المكان براقا كما أن بإمكانك قيادتى كيفما
تشائين .

- لا أعتقد أن ما تقوله صحيح يا توم .. ولكنك
أخى الحبيب .

ثم عبرت الحجرة وقبلت أخاها ثم عادت الى مقعدها
بجوار النافذة فقال توم :

- اننى أود أن أصنع كومة من كل الحقائق
والمعارف ، كل حقائق ومعارف الكون وكل الرجال
الذين اكتشفوها .. الكل فى كومة واحدة ثم أشعل
النار فى هذه الكومة حتى تصبح رمادا .. على أى
حال .. فعندما أذهب للعيش عند « باوندراى »
العجوز سأأخذ بعض الأشياء ..

فقال « لويزا » :

- كم أتمنى ألا يخيب السيد باوندراى أملك .
ولكنه أكثر جفاء من أبى ولا تبلغ طبيته نصف طيبة أبى

- أنا حمار يا لوي . اننى غبى كالحمار ، وأشعر
أنى بالفعل حمار ، ولا ينقصنى سوى أن أرفس الناس !
فقال لويزا ضاحكة :

- الا أنا .. آمل هذا يا توم .

- لا .. ما كنت لأؤذيك يالوو ، فانى لأستطيع
الحياة فى هذا .. هذا السجن بدونك ..

- كثيرا ما كنت أتساءل لماذا لا يمكننى أن أجعلك
أسعد حالا ، اننى كبرت ولكنى لا أستطيع أن أفعل
أى شىء يثير البهجة ، فأنا لا أجيد عزف الموسيقى ،
ولا أحسن الغناء ولا أعرف أى قصص يمكن أن أحكيها
لك .. اننى حتى لا أعرف أى شخص يمكننى أن أحدثك
عنه .

- ولا أنا ، بل انى حمار أيضا .. أبى قرر لى أن
أصبح حمارا .

- انها لماسة كبيرة يا توم فكلانا لا يستطيع
مساعدة الآخر .

- أنت شىء مختلف ، فانت فتاة .. فتاة رائعة !

هكذا صرخت السيدة جرادجريند وهي تدخل من
باب حجرة الدرس ثم استأنفت قائلة :

- انك تعلمين تماما أن أباك قد منع المرحان .
- أجل .. أعلم يا أمي ، ولكنني كائن حي وقد
كنت فقط أفكر في أمور الحياة .. وكم هي قصيرة ؟
.. أليس كذلك ؟ ترى أي أشياء طيبة نستطيع أن
نعملها في حياتنا القصيرة ؟

فقالت الأم في دهشة :

- هذا هراء ! آه يا رأسى المسكين ! لويزا ..
اياك .. اياك أن تسأل والدك مثل هذه الأسئلة
الغبية !

فضحك « توم » وقال بتخايب :

- أستطيع أن أتعامل مع المعجوز « باوندرباي » !
- كيف ؟ .. أم أن هذا سر ؟

فقال توم بمرح :

- إذا كان سرا .. فهو ليس ببعيد ! انه ..
أنت يا لولو .. فأنت سيدته الصغيرة .. اليس كذلك؟
ولسوف يفعل أي شيء .. أي شيء من أجلك ،
وأنت ستفعلين أي شيء من أجل ، وعلى هذا - وبوضع
النهايات معا كما يقول أبى - تكون المحصلة هي : أن
السيد باوندرباي سيفعل أي شيء من أجل !

وانتظر توم أن يسمع اجابة من أخته ، ولكنه لم
يحظ بأية اجابة .. واخيرا قال :

- هل نمت يا لولو ؟
- لا .. فقط سرحت بخيالى ..
- « لا تسرحى يا لويزا ، !!

وأیضا كرهتها الحقائق والأرقام ، فكانت ترفض أن تسكن في رأسها . وقد أخبر المدرس السيد جراد جريند أن البتة رقم (٢٠) لا يمكنها حفظ الأرقام فقال له :

- انها حقا تعرف شكل الأرض ولكنها لا تريد أن تتعلم مقدار حجمها بدقة .
ورد عليه « جراد جريند » قائلا :

- هذا سيء للغاية ، ولكن .. لا تدعها تستريح .. لقنها بالحقائق والأرقام .. باستمرار !

في البيت ، لم تكن « لويزا » قد تحدثت مع « سيسي » من قبل ، فالحياة في (ستون لودج) تشبه الآلة البخارية ، تعمل بانتظام ما دام الناس لا يتدخلون في عملها . ولكن في إحدى الأمسيات عرضت لويزا على سيسي أن تساعدتها في فهم درس صعب .. وبعدها دار بينهما هذا الحوار .. الذي بداته سيسي قائلا :

- آه .. انك ذكية جدا يا آنسة لويزا .. ولكم أتمنى أن أتحسن في فهم الدروس .

الفصل الخامس

أصبحت حياة « سيسي » - سواء في المدرسة أو في ستون لودج - عبارة عن عاصفة من الحقائق والأرقام ، ولم يكن هناك سوى شعاع براق يلمع مثل النجمة وسط هذه العاصفة .. هذا الشعاع هو أملها في عودة أبيها . وإن كان السيد جراد جريند قد اعتاد أن يردد على مسامعها قوله :

- لن يعود يا « جوب » .. لقد رحل ولن يعود .. وهذا هو الواقع ببساطة !

وسرعان ما كرهت سيسي الحقائق والأرقام ،

وتابعت « سيسي » حديثها قائلة :

- ثم اختبرني المعلم ثانية .. قال : (ان سكان
كوكناون يبلغون نصف مليون نسمة وفي كل عام يموت
اثنان عشرة شخصا .. نتيجة سوء التغذية) .. ثم
سألني : (هل هذا شيء طيب أم شيء سييء ؟) ..
وأجبت بقولي : (انه شيء سيء جدا .. بالنسبة
لهؤلاء الاثنى عشرة وعائلاتهم) ولكن الاجابة الصحيحة
كانت .. انه شيء طيب !! .. ولم أستطع أن أفهم !

- ليس هذا سهل الفهم .

فقالت « سيسي » بحسرة :

- كان أبي المسكين يريدني أن أتعلم يا آنسة
لويزا ، وأنا أيضا أحب أن أتعلم ولكن .. ولكني
لا أتوصل أبدا للاجابات الصحيحة .

- وهل كان أبوك يعرف الاجابات الصحيحة ؟

وهنا .. تذكرت « سيسي » أوامر السيد
« جراد جريند » ، يجب عليها ألا تتحدث عن حياتها

- ان هذا لن يفيدك في شيء يا سيسي .
- وهو أيضا لن يضرنى يا آنسة لويزا .
- لست متأكدة من هذا . انك أكثر عطفًا على

أمي .. وأكثر احترامًا لنفسك مني .
- لكنني .. غبية جدا يا آنسة لويزا . وفي
المدرسة أقع في الكثير من الأخطاء .. هكذا يقول معلمي
- حدثيني عن بعض هذه الأخطاء .

- حسنا ، اليوم مثلا - قال لي المعلم : (هذا
البلد يملك خمسين مليون جنيه ، فهل هو اذن بلد
غنى وسعيد ؟ .. البننت رقم (٢٠) ، هل تعيشين في
بلد غنى وسعيد ؟

- وبماذا أحببت يا سيسي ؟

- قلت .. لا أعرف ، لأنني لم أكن أعرف من
يملك هذا المال ، وعما اذا كان لي نصيب فيه أم لا .
وبالطبع كانت هذه اجابة خاطئة .. فهي ليست في
الكتاب .

فقالت « لويزا » :

- نعم ، كانت اجابة خاطئة .

- هل كان أبوك يحبها ؟

- آه .. أجل ! كما كان يحبني تماما ، بل انه أحبني في البداية لأجل خاطرها هي . ثم لم نفترق منذ ولدت .

- ولكنه ترك ورحل يا سيسى .

- فقط من أجلي يا آنسة لويزا .. من أجلي لا من أجل نفسه ، لا أحد يعرف أبى أكثر منى . انه لن يشعر بالسعادة أبدا .. حتى يعود .

- احكى لى يا « سيسى » .. احكى أكثر عنه ، ولن أسألك ثانية . اين كنتما تعيشان ؟

- كنا دائمى الترحال مع السيرك ، ولم يكن لنا أبدا وطن حقيقى .. أو بيت نملكه فى أى مكان ولم يكن أبى فارسا ممتازا .. فى الحقيقة !

ومرة أخرى خفت صوت سيسى حتى أصبح همسا وأكملت :

- كان مهرجا .

السابقة ولا عن أبيها .. فنظرت بحزن الى لويزا ولم ترد على سؤالها .

فقال لها لويزا بصوت يملؤه الحنان :

- هذا ليس سؤالا ضارا يا سيسى ، كما أن أحدا لن يستطيع سماعنا .

فقال سيسى بتردد :

- كان .. أبى يستطيع الكتابة قليلا ، ولكنه لم يكن يعرف الكثير .

- وأمك .. هل كانت ماهرة ؟

- قال لى أبى أنها كانت كذلك .. فأنا لم أرها لأنها ماتت وهى تلدى ، كانت تعمل ...

وبصوت هامس أكملت :

- كانت تعمل راقصة !

فسألته لويزا بقوة حلم مفاجئة .. قوة الحلم الضائعة أو المختبئة فى دهاليز النفس المظلمة ...

سألته :

- دائما .. دائما ! وأبدا .. لم يحمل في نفسه
ضعيفة لأحد .

- هل كنت تتوقعين أنه سيتركك ؟

- لا ، ولكنني كنت أحس بتعاسته .. !

في هذه اللحظة دخل « توم » الى حجرة الدرس
وكالعادة .. كان يفكر في نفسه فقط وينظر شذرا
للفتاتين .

فابتسمت له لويزا وقالت :

- كنت أسأل سيسي بعض الأسئلة ، يمكنك
أن تمكث يا عزيزتي توم .. ولكن لا تقاطعنا .

- حسنا ، لقد حضر « باوندرباي » العجوز مع
أبي ، فهلا أتيت وتحدثت معه ؟ .. لو فعلت ربما
دعاني للعشاء عنده الليلة .

- حالا .. سوف آت خلال دقيقة .

- اذن سوف أنتظر ، فقط لأنأكد انك ستأتين

- تعنين كان يضحك الناس .

- أجل . ولكنهم في بعض الاحيان كانوا
لا يضحكون ، وعندئذ كان أبي يبكي . وقد بكى كثيرا
منذ جئنا الى هنا في كوكتاون .

- وأنت .. هل كنت تسرين عنه عندئذ ؟

- كنت أحاول ...

(من خلال دموعها قالت « سيسي » :

.. لكنه بدأ يخاف ، بدأ يظن أنه مهرج سيء ،
كان يريدني أن أصبح ذكية وماهرة .. مختلفة عنه
.. اعتدت أن أقرأ له كثيرا .. كانت كتبنا خاطئة
ولكننا لم نكن نعرف هذا .

- وهل كانت هذه الكتب تعجبه ؟

- أوه ! جدا !! كان ينسى كل متاعبه وأحزانه
عندما أقرأ له ، واعتاد أن يسرح في الخيال بالساعات
مع الملك والجننيات .

- وهل كان طيبا مع الناس الآخرين ؟

وهكذا استأنفت حديثها هامة :

- كان أبى تعيسا لأن الناس لم يعودوا يضحكون على حركاته ، وهذا هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث للمهرج . وقد سمعته يبكي فى المساء . كان يحاول أن يخفى وجهه عنى ، ولكنى سمعته ، وهو يقول . (يا عزيزتى ويا حبي يا سيسى) . وفى الصباح ضمنى الى صدره بقوة وقبلنى ، لم أفلق . . لأنه كان يفعل هذا دائما كل صباح قبل ذهابى الى المدرسة . وعندما عدت الى المدرسة . . لم يكن هناك !!

وهنا قاطعها نوم قائلا :

- هيا . اسرعى يالوو . . فالعجوز باوندرباى سيرحل ان لم يرك الآن .

فهمست سيسى قائلة :

- هذا هو كل شيء يا آنسة لويزا ، أنا أعرف أنه سيعود أو على الأقل سيكتب لى ، أو سيكتب لى السيد سليرى . لهذا كلما شاهدت السيد جراد جريند

يحمل رسالة يتوقف قلبى عن الخفقان وأشعر
أنى واثقة أنها من . . .

ومرة أخرى قاطعها نوم بنفاد بصوت عال:

- أو ، هيا يا لوو . . ماذا تنتظرين ؟

ومنذ تلك الليلة . . صارت لويزا تنظر بقوة فى عينى أبيها عندما كان يفتح رسائله وفى بعض الاحيان ، كانت سيسى تجد فى نفسها قدرا من الشجاعة
فتسأل السيد جراد جريند قائلة .

- سيد جراد جريند ، هل هناك أى خطاب يخصنى

يا سيدى ؟

وكانت لويزا تنتظر الرد بنفس اللهفة والرجاء اللذين كان يخفق بهما قلب سيسى ، ولكن . . دائما كانت الاجابة :

- لا ، يا جوب . . ليس هناك أية رسائل تخصك

وعندما كانت سيسى تذهب للمدرسة كان

جراد جريند يقول بصوت الحكمة :

الفصل السادس

كان « ستيفن بلاكبول » نساجا .. يعمل في مصنع نسيج « جوزيه باوندرباى » .. يبلغ من العمر أربعين عاما - وان كان يبدو أكبر من هذا - وكان انحناء منكببة وشعره الرمادى ينبئان عن حياة قاسية عاشها .

ولم يكن « ستيفن بلاكبول » متعلما ، وان كان بعض العمال يعلمون أنفسهم بأنفسهم ، ويستعيرون كتبنا كثيرة من مكتبة المدينة ويقرأونها ، وبعضهم أيضا يجيد فن الخطابة ، الا أن ستيفن لم يكن واحدا من

- الأمل ! .. انه سيم يسرى فى الدم ! لماذا لا تستطيع هذه الفتاة أن تفكر بحقائق الواقع فقط ؟

كانت « لويزا » هى الوحيدة فى ستون لودج التى تعلم مدى قوة الأمل عند سييسى - لقد كان الأمل - وهى تعلم هذا - قويا .. مجسما كالواقع تماما .. أما « توم » الابن فهو لا يفكر الا فى نفسه ، والسيدة جراد جريند المسكينة يكفيها رأسها المريض .. الذى لا يسكنه غير الألم !

هؤلاء • برغم أنه كان يحب القراءة • واهم ما كان
يميز ستيفن بلاكبول فهو أنه نساخ ماهر ورجل
شريف •

دق جرس المصنع فى مساء أحد الأيام • فتوقفت
الآلات وأطفئت الأنوار واندفع الرجال والنساء من
البوابات الحديدية إلى الشارع • وسار بلاكبول
وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص ما وبعد برهة
صاح مناديا :

« راشيل ! »

فاستدارت نحو مصدر الصوت امرأة كانت تقف
تحت مصباح من مصابيح الطريق ، رأى ستيفن وجهها
الصغير الجميل وعينيها الرقيقتين - لم تكن « راشيل »
فتاة صغيرة فقد كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين
عاما ، صاحت عندما وجدت أن من يناديها هو
ستيفن ، وقالت :

« آه يا رجل ، أهذا أنت يا صديقى العجوز ؟ »

« نعم ، أما أنت فصغيرة كما كنت وكما ستكونين
دائما يا راشيل • »

فقالت راشيل ضاحكة :

« كلانا قد كبر يا رجل ، ولا حاجة بنا لاختفاء
هذه الحقيقة • »

« هل يمكننى أن أسير معك قليلا فى طريق
العودة الى البيت • »

« أجل ، فربما لا يجب أن نشاهد معا كثيرا
ولكن يجب أن أراك من وقت لآخر بالطبع »

« لقد كنت دائما •• طيبة معى يا « راشيل » ••
ولوقت طويل •• لهذا فطلبناك عندى قوانين ، وأنا
أعلم أن الناس قد يتكلمون كثيرا حتى عنك أنت • »

« آوه ، لا تذكر القوانين يا ستيفن • »

« معك الحق يا حبيبتى ، فالقوانين دائما
(ملخطة) •• كم فكرت وفكرت ، ودائما أصل
الى نفس النتيجة •• (اللخطة) !! »

وعندما وصلا الى بيتها ، صافحته مودعة وهي
تقول :

- سعد مساؤك يا ستيفن !

فرد عليها ستيفن بقوله :

- سعد مساؤك يا حبيبتي الأثيرة .. سعد
مساؤك !

ثم تابعها بعينيه وهو واقف حتى دخلت الى
منزلها . انه يحب راشيل .. يحب كل شيء فيها ..
أصابعها الرقيقة .. وجهها .. صوتها .. كل شيء .

كان « ستيفن » يعيش في غرفة واحدة فوق
متجر صغير . وعندما وصل الى البيت .. أشعل المصباح
ووجد صاحبة المتجر نائمة فلم يوقظها ودخل مباشرة
الى غرفته . كان أثاث غرفته يتألف من سرير ومنضدة
وبضعة كراسي ومكتب صغير . وضع « ستيفن » المصباح
على المنضدة ، وبينما هو يضع المصباح .. اصطدم
بشيء ما وكاد أن يسقط فوقه !! .. امرأة ! ..
نهضت من فوق الأرض مستندة على ذراع واحدة ،
وما أن رآها ستيفن حتى صاح في فرح :

- يا للسما ! هل عدت ثانية !

حاولت المرأة أن تعتدل جالسة ، كانت ثملة
وقدرة ، ثيابها كانت ممزقة ، رفعت شعرها بحركة
عصبية فوق وجهها على صدرها ثم ضحكت ضحكة
هستيرية وقالت :

- أجل يا رجل .. مرة ثانية ...

ثم صرخت فيه قائلة :

... مرة ثانية وثالثة ورابعة .. لم لا ؟

ثم نهضت واقفة مستندة على المنضدة واستدارت
الى ستيفن فجأة بنظرة ملؤها الغضب وصاحت فيه :

- سوف أبيع كل ما نملك .

ثم صرخت عاليا :

.. سوف أبيع كل شيء .. عشرين مرة .. قم .

قم من فوق السرير ! .. قم .. انه ملكي .

وسارت نحو السرير ، فابتعد « ستيفن » عن

طريقها وجلس فوق مقعد بجوار النافذة .

فالتت المرأة ١نفسها فوق السرير وراحت في النوم في الحال . أما « ستيفن » فقد جلس بجوار النافذة طوال الليل ، ولم يتحرك من مكانه سوى مرة واحدة ليضع غطاء فوق المرأة النائمة .

في الصباح التالي كان « ستيفن » يقف أمام نوله مبكرا . . كان هناك العديد من الأنوال والعديد من العمال في مصنع باوندرباي . . وكان باوندرباي يسمى عماله « الأيدي » . . وعندما دق جرس المصنع معلنا عن بدء فترة الراحة وهي ساعة يسمح بها باوندرباي لسأله كمي يتناولوا غداءهم ، فخرج العمال لطعامهم ، بينما سار « ستيفن » في الطرقات حوالي عشرين دقيقة لم يكن يشتهي أي طعام في هذا اليوم . ثم توجه الى منزل باوندرباي وطرق الباب ففتحت له مديرة المنزل فقال لها في أدب :

— هل لي أن أقابل السيد « باوندرباي »
ياسيديتي ؟

فسأته مسز « سبارسيت » :

— ما اسمك ؟

— ستيفن بلاكبول . . مدام !

ولما لم يكن « ستيفن » قد سبب أية مشاعب للسيد « باوندرباي » من قبل فقد سمح له بمقابلته فصحبته مسز « سبارسيت » الى داخل البيت ، وعندما رآه السيد « باوندرباي » بادره قائلا :

— ما الأمر يا ستيفن ؟ أنا أعلم انك لم تأت للشكوى ، فأنت لست (يدا) غيبا تريد ملعقة ذهبية في فمك !

— لا ، يا سيدي . أنا لا أفكر في الذهب !

— حسنا ، اذن . . ما هي المشكلة ؟

فنظر ستيفن الى مسز « سبارسيت » ،

فقال له باوندرباي :

— هذه سيدة . . عظيمة ، برغم أنها تعمل الآن مديرة منزل ، فانها قد ولدت في ظل الرفاهية ، واذا كنت لا تمنع في وجودها هنا . . فانها ستبقى .

- لا أمانع يا سيدى ، فكلامى لن يكون جارحا
لسيدة رفيعة المقام مثلها .

- اذن تكلم يا ستيفن ، أنا أصغى اليك .

- لقد جئت طالبا النصح يا سيدى .. فأنا فى
أشد الحاجة لنصحك . فمنذ تسعة عشر عاما تزوجت
فتاة جميلة .. كانت جميلة وطيبة ، ولكن .. سرعان
ما انقلبت الى امرأة شريرة . لم تكن غلطتى والله يعلم
أننى لم أكن زوجا فظا .

- لقد سمعت عن هذا من قبل ، لقد أصبحت
أمرأة سيئة .. تشرب الخمر وتوقفت عن العمل وباعت
أثاث بيتك وسببت لك الكثير من المتاعب .

- وكم حاولت أن أساعدها .. حاولت كثيرا ، لقد
باعت ملابسى وأثاث بيتى .. ليس مرة واحدة بل
عشرين مرة ، وكانت دائما تنفق كل المال على الشراب
كانت تسير من سىء الى أسوأ . ثم تركتنى .. ولكنها
عادت ثانية .. كانت دائما تعود . ماذا أصنع ؟ كثيرا

ما كنت أشعر بالخوف من العودة الى البيت . وقد
دفعت لها لتبقى بعيدا عنى ، كنت أدفع لها طوال خمسة
أعوام .. لقد عشت حياة صعبة وحزينة ، ولكنى أبدا
لم أشعر بالعار أو الخوف ، وأمس .. أمس عدت لبيتى
مساء . فوجدتها هناك ! .. كانت مستلقية على الأرض
.. ثملة ؟

توقف ستيفن عن الكلام للحظات بدا فيها قويا
وفخورا بنفسه ، ولكن سرعان ما انحنى منكبها وبدا
وجهه خاليا من أى تعبير .

وعقب السيد باوندرباى قائلا :

- كنت أعرف هذا منذ وقت طويل ، فيما عدا
الجزء الأخير ان هذا لأمر سىء للغاية . انيا لمأساة مجرد
أنك تزوجت ، ولكن .. فات أوان هذا الكلام الآن .

**وهنا سألت مسز « سبارسيت » السيد
« باوندرباى » قائلة :**

- هل كان يكبرها فى السن بكثير يا سيدى ؟

فحول « باوندرباى » السؤال الى « ستيفن »
قائلا :

– هل سمعت سؤال السيدة يا « ستيفن » ؟ هل
كنت تكبرها بكثير حين تزوجتها ؟

فاجاب « ستيفن » :

– لا ياسيدى ، كنت فى عامى الواحد والعشرين
وكانت هى فى العشرين من عمرها .

فقالت مسز « سبارسيت » :

– ان هذا يدهشنى يا سيدى . فان الفارق الكبير
فى السن عادة يكون هو سبب التعاسة الزوجية .

نظر باوندرباى الى مديرة منزله بفضب ، وان
كان هناك تعبير غريب – نصف خجل – قد ارتسم
على وجهه .

ثم استدار فاحية بلاكبول قائلا :

– استمر يا ستيفن . . انى اصغى لك !

– كيف أستطيع أن أتخلص من هذه المرأة
يا سيدى ؟ هل يمكنك أن تنصحنى ؟

– تتخلص منها ؟! ولكنها زوجتك يا رجل !
لقد تزوجتها حتى الموت . . موتك أنت أو موتها هى .

– يجب أن أتخلص منها والا . . سأجن . كان
من الممكن أن أجن بالفعل ، لولا انى أجسد بعض
السلوى .

– ممن ؟

– من أفضل فتاة فى العالم يا سيدى ؟

وهنا صاحت مسز سبارسيت وكأنها أمسكت
بلص :

– آه ! انه يود أن يصبح حرا يا سيدى حتى
يتسنى له أن يتزوج من امرأة أخرى .

فقال ستيفن :

– أجل ، السيدة على حق . . ان الامر لا يكون
مشكلة بالنسبة لرجل غنى . فهو حين لا يضادف
السعادة فى زواجه مع زوجته يمكنها أن يعيشا فى
عرف منفصلة فى بيت كبير أو حتى يعيشان منفصلين

وقال السيد باوندرباى لستيفن :

- سوف تعاقب .

فقال ستيفن يائسا :

- سيد باوندرباى .. أليس هناك أى قانون

يمكن أن يساعدنى ؟

- الزواج يبقى مدى الحياة يا بلاكبول .. انه

شئ جاد جدا .

- ولكن بعض الزيجات لا تستمر مدى الحياة

.. أنا أعرف هذا .. لقد قرأت شيئا كهذا . فبعض

الرجال يقتلون زوجاتهم كما أن بعض الزوجات يقتلن

أزواجهن .. لن أقتل زوجتى أبدا ولكن لابد أن هناك

قانونا يساعدنى .

فقال باوندرباى :

- هناك قانون ، ولكنه ليس لك .. فهو يتكلف

الكثير من المال .

ويتقاسمان دخلهما ، بل يمكنهما أحيانا انهاء زواجهما
بالقانون . فهل باستطاعة رجل فقير مثل أن يفعل أى
شئ من هذا . يجب أن أتخلص من تلك المرأة ، وكل
ما أريد .. هو ان اعرف .. كيف ؟

فرد باوندرباى قائلا :

- لا يمكنك هذا !

- اذا ضربتها .. فهل يعاقبنى القانون ؟

- بالطبع ستعاقب !

- واذا تركتها .. فهل يعاقبنى القانون ؟

- بالتأكيد .

- اذن .. ماذا يحدث لو أنى تزوجت من المرأة

الأخرى التى أحبها ؟

عند سماعها هذه الكلمات اغلقت مسز

سبارسيت عينيها وكأنها تسمع شيئا مخزيا .

سؤال ستيفن بهنو :

- كم ؟

- ألف جنيه ، ربما ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه !
فشعب وجه ستيفن وقال :

- اذن ، فانا كنت محقا ..

ثم استأنف وهو يضغط على مخارج الكلمات
مؤكدًا :

- ان هذا (لخبطة) • لا أمل لي بالمرّة ، سيكون
أفضل لي أن أموت !

فرفعت السيدة سبارسيت عينها للسماء ..

وقال السيد باوقس باي :

- ان ما تقوله هراء يا رجل ، فقوانين هذا اليك
ليست (لخبطة) انك فقط لا تفهمها • ان عمك يبدأ
وينتهي أمام نولك • اسمع يا ستيفن بلاكبول • لقد
كنت دائما •• وحتى الآن ، نعم (اليد) وآمل

الا تكون في طريقك لتصبح سيئا مثل بعض زملائك
من الأيدي ..

فهز ستيفن رأسه وقال :

- أشكرك يا سيدي •• فشارك سعيدة •

وبينما هو يسير خارجا قال هوردا :

- انها (لخبطة) •• (لخبطة) كبيرة !!

الفصل السابع

بينما كان ستيفن يعبر الشارع خارج بيت السيد باوندرباي ، لمست ذراعه امرأة عجوز فالتفت اليها .. كانت طويلة ، منتصبه القامة ، رغم كونها كبيرة في السن ، وكانت ملابسها أنيقة ونظيفة فيما عدا بعض الغبار العالق بحدائثها ، ربما من السير في طرقات المدينة .

سأله السيدة برقة :

- من فضلك يا سيدي ، ألسنت خارجا لتوك من منزل السيد باوندرباي ؟

- أجل يا مدام ..

- عفوا سيدي . ولكن هل تحدثت الى هذا السيد المهذب اليوم ؟

- أجل يا مدام ..

- وكيف كان يبدو يا سيدي ؟ هل هو بخير .. هل كان كبيرا وجسورا ؟ ..

بدت السيدة وكان قلبها سيقفز من بين ضلوعها وهي تتحدث .. وهل كان صوته جيدا وقويا ؟

وخيل لستيفن أنه ربما يكون قد رأى هذه السيدة من قبل .. **واجابها :**

- أجل يا سيدي .. كان في خير حال و .. كما تصفينه تماما .

- شكرا يا سيدي .. شكرا جزيلًا .

وأخذ ستيفن يفكر ويحدث نفسه قائلا .. لا أنا لم أر هذه السيدة من قبل ، ، ربما رأيتها في حلم كما أنني لا أعتقد أنها تعجبني كثيرا

ومشت السيدة العجوز الى جانبه تحدثه وتقول
له أنها حضرت الى كوكناون بالقطار هذا الصباح ..
ان لها كوخا صغيرا في البلدة التي تبعد خمسين ميلا
عن كوكناون ، وانه كان يجب عليها أن تسير تسعة
أميال على قدميها لتصل الى محطة القطار ..
ثم أضافت قائلة :

- وسأمشي تسعة أميال أخرى في طريق عودتي
الى بيتي الليلة .. أليس هذا شيئا طيبا في مثل
سنى ؟

- طيب جدا ، ولكن لا تفعلنى هذا كثيرا يا
سيدتى .

- لا ، لا أفعل هذا سوى مرة في العام ، فأنا
أدخر بعض المال على مدار السنة ، ثم أسافر وأحضر
الى كوكناون ، فأنا أحب رؤية الشتاء . وكنت أتمنى
رؤية السيد باوندر باى اليوم ، ولكننى رأيتك أنت
.. وأنت رأيتة .. إذن يجب أن أكون سعيدة لهذا !
لم يستطع ستيفن أن يفهم .. لماذا تتمنى هذه



الفتاة في بروتون

- انه لجرس جميل .. انه أجمل جرس سمعته
فى حياتى ، منذ متى وأنت تعمل هنا يا سيدى ؟
- منذ .. دسنة من الأعوام يا سيدتى .
- أوه ، يجب أن أقبل هذه اليد التى عملت فى
هذا المصنع العظيم طوال اثنى عشر عاما .

وبالفعل قبلت السيدة العجوز يد ستيفن برغم
أنه حاول أن يمنعها ، ولكنها فعلت هذا ببساطة
وبحسب .. لقد جعلت هذه القبلة تبدو وكأنها الشئ
الصحيح فى المكان والتوقيت الصحيحين .. بعد هذا
تركها ستيفن ودخل الى المصنع .

أخذ ستيفن يعمل أمام نوله فى استغراق طوال
نصف ساعة متصلة ، وبينما هو يرفع بصره - صدفة
- وينظر من خلال النافذة ، اذا به يجد المرأة التى
مازالت واقفة فى الشارع تنظر الى جدران المصنع
الداكنة والى سحائب الدخان السوداء وتعبير غريب
يكسو وجهها .. كانت أصوات الماكينات تبدو وكأنها
موسيقى حماسية جميلة تناسب فى أذنيها .. وأخذ

السيدة رؤية السيد باوندرباى وهى لم تشرح له ..
بعد هنيهة قال لها :

- يجب أن أسرع والا تأخرت عن العمل ، فأنا
نساج فى مصنع السيد باوندرباى ..
فنظرت اليه السيدة مليا وقالت :

- أولست سعيدا هناك ؟
- لكل انسان متاعبه يا سيدتى .
- أجل ، تعنى أن لديك بعض المشكلات فى بيتك
أليس هذا ما تعنيه ؟
- أحيانا يا سيدتى .
- وهذه المشكلات لا تلاحقك فى العمل ، أم أنها
تؤثر على عملك ؟
- لا ، يا سيدتى .

وصلا الى بوابة المصنع ، كانت « الأيدى » تسرع
داخلة وكان الجرس يدق .. وبعد هنيهة بدأت الآلات
تدور . قالت السيدة :

ستيفن بعد هذا يفكر في هذه المرأة كثيرا هذا المساء
.. كما أنه يفكر أيضا .. في تلك المرأة القابضة
في بيته .

أخيرا انتهى اليوم ، كانت السماء تمطر حين خرج
ستيفن من المصنع وأخذ يبحث عن راشيل ، فقد كان
في أمس الحاجة. للسلوى والطمأنينة التي لا يستطيع
أحد منحه اياها الا راشيل ، ولكن .. لابد أن راشيل
عادت الى بيتها مبكرا اليوم لان ستيفن لم يرها .

بعد هذا قضى ستيفن وقتا طويلا وهو يتجول
في طرقات المدينة .. تحت المطر ، يفكر في حياته
الضائعة ، وفي حياة راشيل الضائعة أيضا .

منذ سنوات عديدة ، حدث راشيل عن متاعبه ،
لم يتحدثنا عن الزواج - بالطبع - ولكنها كانت
ستتزوج لو أنه كان حرا ، ولعلهما - لو كان قد حدث
- كانا سينعمان سويا ببيت دافى مريح .. أطفال ..
حب .. احترام متبادل وشرف ، ولكنه بدلا من هذا
كان مقيدا بالاغلال من يديه وقدميه الى امرأة سكيرة

١٠٠

قدرة ، وراشيل ترى كل صدقاتها وقد تزوجن
وأصبح لهن بيوت وعائلات .. بينما هي تمنى و ..
تنتظر ستيفن .

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة حينما عاد
ستيفن الى غرفته ليجد المصباح مضاء وراشيل تجلس
على حافة السرير وكأنها اضاء النور المنبعث من وجهها
جنبات عقله المظلمة . قالت له راشيل :

- كم أنا سعيدة بعودتك أخيرا يا ستيفن . لقد
تأخرت كثيرا .

- كنت أتسكع في طرقات المدينة .

- لقد خمنت هذا . ولكنها ليلة غير ملائمة
لمثل هذا ، لقد جئت هنا بعد الغداء مباشرة ، بعد
أن تسلمت رسالة من السيدة صاحبة المتجر ، تقول
فيها أن شخصا ما بحاجة الى المساعدة هنا وبالفعل
كانت على حق .. وقد جاء الطبيب أيضا .. لقد آذت
زوجتك نفسها ..

ولم يستطع ستيفن أن يرفع عينه في وجه راشيل ، التي استأنفت كلامها :

- جئت لمساعدتها يا ستيفن ، فقد كنا نعمل سويا حين كنا صغارا ، وكانت صديقتي قبل أن تتزوجها . . . بالطبع أنت أكثر عطفًا وكرما من أن تتركها تموت أو تتألم . أنا أعلم هذا .

- اوه ! راشيل . . . راشيل !

حركت راشيل المنضدة الى حافة السرير ، كانت هناك عدة زجاجات عليها ، كتب على احداها باللون الأحمر : « سم » قرأ ستيفن هذه الكلمة فشحب لونه ، بينما سكبت راشيل بعضا من محتويات الزجاجاة ومسحت بها على جرح في عنق المرأة وقالت :

- يجب أن أفعل هذا مرة ثانية في الساعة الثالثة صباحا ، ولهذا سأبقى حتى هذا الوقت .

- ولكنك يجب أن تنالي قسطا من الراحة ياراشيل ، فلديك عمل في الغد .

- لا ، بل استرح أنت يا ستيفن ، فأنا نمت

جيذا الليلة الماضية في حين انك تبدو مجهدا . حاول أن تنام على هذا الكرسي . . . هناك ، بينما أسهر أنا عليها . تصور أنها لم تعرفنى يا ستيفن ، عندما أفاقت تمتمت بعض الهلوسة ثم راحت في النوم ثانية قال الطبيب انها ستتحسن غدا .

استقرت عينا ستيفن مرة أخرى فوق أحرف كلمة (سم) المكتوبة على الزجاجاة ، فارتعد واهتز كل جسمه فوقفت راشيل تريد أن تتحرك نحوه لتطمئن عليه ، ولكن ستيفن قال لها :

- لا . . . اجلسي يا راشيل . . . ابقى حيث أنت بجوار الفراش ، حيث رأيتك أولا . . . لا يمكن أبدا أن تكوني أكثر جمالا من هذا .

كانت ليلة رهيبة . أخيرا نام ستيفن ، ولكنه رأى في نومه كابوسا مفرعا . . . رأى أحرف كلمة « سم » وكأنها كتبت من نار ، وأبحر ستيفن في أعوام المستقبل يبحث عن راشيل . . . لكنه لم يعد يراها أو يسمعا كأن أحرف كلمة (سم) تطارده في كل مكان .

وعندما استيقظ ستيفن وجد راشيل نائمة ،
وهناك فوق المنضدة كانت زجاجة السم . تحركت المرأة
الملقاء على الفراش ، ثم جلست وأدارت عينيهما في أرجاء
الغرفة ، لم تتوقف عند راشيل النائمة فوق مقعدها
ولكنهما استقرتا في النهاية فوق الركن المظلم القابع
فيه ستيفن ، كان ستيفن يعلم أن هاتين العينين
الشرستين لا تنظران إليه ولكنهما كانتا تبحثان عنه
فهى تعرف أنه بالغرفة ! لم يكن فى عينيه ما يتذكره
ستيفن ، فالفتاة التى تزوجها ذات يوم لم يكن لها هذا
الوجه المرعب . انها الآن تبدو وكأنها حيوان يرقد فى
الفراش .

لاحظت الزجاجة الموجودة فوق المنضدة فمدت إليها
يدا معروفة . لم يتحرك ستيفن من مكانه ، أخذت
الزجاجة وفتحتها بأسنانها - ستيفن لا يستطيع ان
يتحرك أو يتكلم ، كان يتساءل . . هل ما زال يحلم ؟
أم أن ما يحدث أمامه حقيقة ؟ وأخذ صوت ما فى داخله
يطلب الاستيقظ يا راشيل !! استيقظى والا ماتت
المرأة لله .

١٩٠٤

رفعت المرأة زجاجة السم ببطء نحو فمها . .
لحظة أخرى ولن يكون بمقدور انسان مساعدتها ولكن
فى اللحظة التالية . . انطلقت صرخة من راشيل وارتمت
على الفراش تحاول أن تأخذ الزجاجة من المرأة التى
قاومت من أجل الاحتفاظ بها وشدت شعر راشيل
ولكن راشيل استطاعت أن تنتزع منها الزجاجة .
اندفع ستيفن للفراش وهو يصيح :

- هل أنا متيقظ أم حالم ؟ ماذا حدث يا راشيل ؟
- كل شيء عن ما يرام الآن . . يبدو انى غفوت
للحظات .

رأى ستيفن وجه راشيل الشاحب وشعرها
المنساب ، ورأى آثار أظافر المرأة على خديها ، فعرف
أنه كن متيقظا . صبت راشيل بعضا مما فى الزجاجة
فوق قطعة قماش ومسحت بلطف رقبة المرأة وهى تقول:
- الساعة الآن الثالثة . أنا سعيدة أنى مكثت
معكما . . انها بخير الآن وقد أدبت عملى وهى لن تحتاج
لما بقى فى هذه الزجاجة . .

دائما بجانبها يا راشيل .. فى أفكارى .. ستكونين
دائما بجانبى أنا أيضا .

ثم خرج معها الى الشارع ، وقالت له فى صوت
منكسر :

- سعد مساؤك .

كانت الأمطار قد توقفت وكانت النجوم تلمع فى
السماء ، بينما قال ستيفن فى نفسه .

- ان راشيل هى نجمة حياتى المضيئة !

وذهبت نحو المدفأة وألقت بمافى الزجاجية فوق
الرماد البارد ثم قالت :

- سأعود لبيتى الآن يا ستيفن .

فقال ستيفن :

- سوف آتى معك يا راشيل ، لا أحب أن أتركك
تذهبين وحدك .

- لا ، بل انتظر معها .. سأكون بخير .

- ألا تخشين من تركى وحدى معها ؟

- لا يا ستيفن .

- آه .. لقد حملتنى من جانب الشر الى جانب
الخير . اننى أود أن أصبح مثلك .. لقد أنقذتنى
يا راشيل ، عندما رأيت السم قلت فى نفسى : (ماذا
يمكننى أن أفعل لنفسى أو لها ؟) .

وضعت راشيل يدها فوق فمه لتوقف هذه
الكلمات ، فأخذها فى يديه وقال :

- لقد سهرت بجوار فراشها .. سوف تكونين

وأیضا صنع الزمان من هذا النسيج الجمیل
« سیسی جوب » كائنا بديما ورقيقا ، وان كان
- الزمان - لسوء الحظ لم يستطع أن یغیر كثيرا فی
عقل سیسی . وبالطبع خاب أمل السيد جراد جریند
لهذا ، وان كان حقيقة یحب سیسی لدرجة منعه من
أن یغضب منها لعدم قدرتها على استيعاب الحقائق .

أما السيد جراد جریند نفسه فقد أصبح عضوا
فی البرلمان عن مدينة كوكتاون ، « عضو حقائق
الواقع » كما كان یحب أن یعتقد .

وفي يوم من الأيام قال لسیسی :

- ان المدرسة لا تساعدك كثيرا یا « جوب » ؛
وأرى أنه من الأفضل أن تتركها .

وأجابت الفتاة بقولها :

- أجل یا سيدی ، أخشى أن هذا صحيح .
- لقد تعلمت القليل من الحقائق والمعارف هناك .
- هذا صحيح یا سيدی ، ولكنی حاولت .
حاولت بكل قوتي .

الفصل الثامن

ان الزمان نساج ماهر ، له أنوال أفضل من كل
أنوال مصنع « جوزیه باوندربای » ففی عامین - أو
أقل - نسج من « لویزا جرادجریند » امرأة بالغة ،
وجعل من « توماس الابن » موظفا فی بنك السيد
« باوندربای » وأیضا جعل منه ضیفا دائما على بیت
السيد باوندربای . ربما كانت حياة موظف البنك
لیست بالحياة السهلة . . . ولكن على أى حال - بعيدا
عن البيت - كان توماس یجد الكثير من الوقت لیرفه
عن نفسه .

- أجل يا جوب لقد كنت أراقبك عن كثب ،
وأعرف أنك حاولت ، ولكن يبدو أنك بدأت متأخرة -
وتلك هي المشكلة .

فألت « سيسى » ، بينما دموعها تنساب على
خديها :

- أنا آسفة يا سيدى .

فقال « جراد جريند » :

- لا تبكى يا « جوب » .. لا تبكى ، فأنا لست
متضررا منك ، فأنت شابة رقيقة ومحبوبة وطيبة القلب
أيضا ، وهذا يكفى بالتأكيد .

فانحنى سيسى فى أدب جم وقالت :

- شكرا لك يا سيدى - شكرا جزيلا .

- لقد كنت نعم المعين لمسز جراد جريند ، وكنت
كذلك على ما أعتقد بالنسبة للآنسة لويزا وأملى هو أن
تكونى سعيدة معنا هنا .

- آه .. أجل .. بالتأكيد يا سيدى .

فى هذه اللحظة دخلت لويزا الى حجرة الدرس ،
فاتجه اليها أبوها وأخذ يدها فى يده وقال :

- يبدو أنى أصبحت أفتقدك يا عزيزتى .. لقد
أصبحت .. امرأة ناضجة ! أليس كذلك !

كانت اجابة لويزا الأولى هى نظرة فاحصة فى وجه
أبيها ، ثم نظرت الى أسفل وقالت :

- أجل يا أبى .

- يا عزيزتى ، ان لى معك حديثا جديا . فهلا
أتيت الى مكتبى غدا بعد الافطار .

- حاضر يا أبى .

- ان لدى مناقشة هامة هذا المساء .. لهذا ..

تصبحين على خير يا عزيزتى فستكونين نائمة حينما
أعود .

ثم طبع قبلة كبيرة على خدنها .. فردت عليه
قائلة :

- مساء سعيد يا أبى .

بعد حوالي ساعة وصل « نوم » الى « ستون لودج » .. كان سعيدا أن وجد أخته وحدها في حجرة المدرس ، وقد بادرتة قائلة :

- أوه .. « نوم » .. لقد مضى وقت طويل منذ أن كنت هنا آخر مرة .

- حسنا « لودج » .. ان عندى أشياء كثيرة تشغلنى فى المساء ، وباوندرباى العجوز يفرقنى فى العمل طوال النهار .. انه يصبح رجلا صعبا فى بعض الأحيان .. عندها أجد لزاما على أن أذكره بك ! .. خبرينى يا « لودج » هل تحدث اليك أبى فى شىء ؟ .. الليلة أمس ؟

- لا يا نوم ، ولكنه كان يود .. وسيحدثنى غدا صباحا .

- آه ! هذا هو اذن .. هل تعلمين أين هو الليلة ؟

- لا ..

- سوف أخبرك . انه مع السيد باوندرباى

انهما يتحدثان .. فى المصرف . ولماذا هما فى المصرف ؟ سوف أخبرك أيضا .. حتى لا تسمعها مسز « سبارسيت » !

واحتضن نوم أخته وقربها اليه ثم قال لها فى استعفاف :

- انك تحبيننى يا « لودج » أليس كذلك ؟

- بالطبع يا « نوم » ولكن لماذا لا تأتى لترانى ؟

- انى أفكر فيك دائما يا « لودج » .. من الممكن أن نكون معا دائما .. ربما . ستساعديننى كثيرا اذا قررت أن توافقى أبى .. سوف أكون أسعد شباب كوكتاون حظا !

كانت لويزا تحرق فى نار المدفئة ولم يستطع أخوها أن يستشف أى شىء من وجهها ، فاحتضنها بقوة وطبع قبلة على خدها .. فقبلته بدورها ، ولكنها ظلت تحملق فى النار .

فاستأنف نوم حديثه قائلا :

- لقد جئت لأخبرك ، لكننى أعتقد أنك قد خمنت

أن تحل في هذا البيت .. ان التصورات التافهة لم
تسلب حياتك ميزانها المعتدل لهذا السبب أنا أعلم
أنا ستوافقيني الآن ..

وانتظر جراد جريند برهة .. عليها تقول شيئا
ولكن لويزا ظلت صامتا . فاستأنف كلامه :

.. عزيزتي .. ان سيدي مهذباً قد سألني اذا
كان في امكانه أن يقترن بك ..

وانتظر جراد جريند ثانية ، لكنها لم تنفوه بكلمة
فاندھش كثيراً حتى انه كرو ما قال :

— اذا كان يمكن أن يقترن بك !

فقالت :

— لقد سمعت يا أبى .. انى مصغية .

— حسنا يا عزيزتي ، ليس عندك ما تقولين ؟

— لا .. حتى الآن يا أبى . من فضلك أخبرني

بكل شيء أولاً .

لم يبد على السيد جراد جريند الارتياح ، فالتقط
مسطرة من مكتبه وأخذ يتأملها ثم قال :

الأمر بالفعل .. أنا مضطر لأن أترك الآن يا « لوو »
فعندى حفلة الليلة .. مع بعض موظفى المصرف ..
أنت لن تنسى حبك لى .. أليس كذلك .. ؟

— لا يا « توم » .. لن أنسى .

— أنت فتاة رائعة ! الى اللقاء يا « لوو » .

— مساء سعيد يا « توم » .

وأخذت لويزا تتابع أخاها وهو يسرع مبتعدا .

أضاءت نيران مصانع كوكناون سماء الليل بضوء
أحمر ، حاولت لويزا أن تجد شيئا — أولا — فى نار
المدفئة والآن تبحث فى السماء الحمراء . لقد جعل
منها الزمان — النساج — امرأة ناضجة فى تروى ماذا
ينسج لها المستقبل ؟

جاءتها الإجابة بعد الافطار فى الصباح التالى

قال لها أبوها :

— عزيزتي لويزا .. أنا مهروور جدا بك وفخور
ايضا بالنتائج التى حققتها فى تعليمك ، لقد خدمت
الحقائق جيدا ! فانا لم أسمح مطلقا للخىالات الغيبية

- بل من الصعب أن نقول ماذا يعنى (الحب)
يا ابنتى ؟ فأنت والسيد باوندرباى تهتمان بالحقائق
لا بعالم الأوهام . . إن الشباب الأحمق قد يتحدث عن
الحب ، لكنى لا أستطيع أن أربط بين هذه الكلمة وبين
عرض السيد باوندرباى للزواج منك .

- إذن ماذا يجب أن أستعمل بدلا من كلمة الحب
يا أبى ؟

- الحقائق يا عزيزتى . . استعمل كلمة الحقائق ،
إنك فى العشرين من عمرك ، والسيد باوندرباى ربما
كان فى الخمسين . الفرق فى السن بينكما ليس مهما
فإنكما متكافئان فى الوضع الاجتماعى وفى الثروة ، وفى
معظم الزيجات يكون الرجل أكبر كثيرا من المرأة . .
هذا الوضع صحيح فى إنجلترا وفى الهند وفى الصين
وفى كل مكان .

ظلت لويزا على هدوئها التام وقالت :

- أبى هل تعتقد أن هذه الحقائق يمكنها أن تحل
محل الحب ؟

- نعم . . بالطبع . . ها هى الحقائق كلها يا ابنتى ،
إن السيد باوندرباى يقول : إنه كان يلاحظك - وأنت
تكبرين - بسرور بالغ . . كان دائما يتمنى أن يتقدم
لخطبتك يوما وهو يعتقد أن هذا اليوم قد جاء . وهو
يتمنى أن تقبله . هذه الرسالة التى أحملها
إليك .

خيم الصمت على الغرفة للحظات ثم قالت لويزا :

- أبى هل تعتقد أننى أحب السيد باوندرباى ؟

فشعر السيد باوندرباى بعدم ارتياح وقلق . .

ثم قال :

... طفلتى . . اننى حقيقة لا أعلم !

- أبى هل تريد منى أن أحب السيد باوندرباى ؟

... لا يا حبيبتى أنا لا أريد هذا بالتحديد . .

- وهل يريد منى السيد باوندرباى أن أحبه ؟

- للحق يا ابنتى . . إنه من الصعب الإجابة على

سؤالك هذا .

- هل من الصعب الإجابة بنعم أو لا يا أبى .

- حسنا .. الناس يعيشون الآن أطول بكثير مما كانوا يعيشون منذ خمسين عاما .

- انى أتحدث عن حياتى أنا يا أبى .

- دون شك .. سوف تعيشين طويلا مثل معظم

الناس .

- انى أريد أن أفعل شيئا طيبا فى حياتى ..

لكن .. ربما هذا لا يهم فالسيد باوندرباى يريد أن

يتزوجنى .. وأنا لا أحبه ، فاذا كان يفهم ذلك ..

فسأقبله ، يجب أن يأخذنى كما أنا .. أخبره بهذا

يا أبى أرجوك .. بالضبط كما قلته .

- سوف أخبره .. ومن الواجب أن يقال كلامك

كما قلته بالضبط . هل لديك أى فكرة لتحديد موعد

الزواج ؟

- لا يا أبى . لا يهم .

نظر اليها أبوها بحدة ثم قال :

- لويزا .. ربما كان يجب أن أسألك سؤالا

آخر .. هل طلب أى سيد مهذب آخر منك الزواج ؟

- بالتأكيد يا عزيزتى ! السيد بارنדרباى طلب

يدك للزواج . هذه حقيقة ، والحقيقة الهامة الأخرى

هى .. هل تقبلينه أم لا ؟ .. انه شئ فى غاية

البساطة .

فقالت لويزا ببطء :

- هل أقبله ؟

كانت لويزا ترتعش .. تمننت أن تلقى بنفسها

بين ذراعى أبيها وتخبره بمكنون قلبها ، لكن توماس

جرادجريند لم يلاحظ شيئا فقد كان هناك جدار عال

بين عقله وبين المشاعر العادية . ومرت اللحظة كما مرت

غيرها من اللحظات وفاتت الفرصة .

ظلت لويزا صامته لفترة طويلة حتى سألتها

أبوها :

- فم تفكرين يا عزيزتى ؟

فاجابت :

- ان الحياة قصيرة جدا يا أبى .

فصاحت في دهشة :

- أبى ! من تراه يسألني ؟! واى انسان قابلت ؟!
وأين كنت حين قابلني ؟ وأية تجارب تلك التى مر بها
قلبي ؟!

- كان من واجبي أن أسأل يا لويزا .

- أنا لا أعرف أى شىء عن آمال المرأة ورغباتها
ولا .. عن الحب .

- هذا صحيح يا عزيزتى ، أنا سعيد لسماع
هذا .

- الأطفال يتمنون أن يصبحوا أمهات وآباء ولكنى
لم أفعل . لقد دربتنى جيدا يا أبى بحيث لم أملك
أبدا قلب طفلة .

- بالتأكيد يا عزيزتى ! ان تربيتهك تبعث على
السعادة واليوم أحصل على المكافأة ، فالسيد باوندرباى
رجل عظيم . والآن .. دعينا نخبر والدتك .

بالطبع ، كان السيد جراد جريند يأمل أن تكون
لويزا سعيدة . كانت سيسى جالسة بجوار فراش

السيدة المريضة .. حين سمعت الخبر .. نظرت
بحزن الى لويزا . كان هناك حب عظيم يطل من عيني
سيسى ولكن .. كان هناك أيضا شك كبير وكثير عن
الشفقة . لويزا أحست بهذا ومنذ تلك اللحظة تغيرت
مشاعرها تجاه سيسى فأصبحت صامتة وباردة ، ولم
تعد منذ هذه اللحظة صديقة سيسى .. انها حتى لم
تعد تتحدث اليها .

- يسعدنى كثيرا أن يكون هذا هو رأيك
يا سيدى .

- الآن .. سيدتى ، سوف أخبرك بشيء قد
يدهشك ، فأنا أزمع الزواج من ابنة توم جراد جريند .

- حقا يا سيدى؟! حسنا .. أتمنى لك السعادة
يا سيد باوندرباى . آه .. أجل أتمنى هذا بالفعل .
أتمنى من كل قلبى يا سيدى أن تحيا فى سعادة دائمة .
كانت تتكلم بكبرياء شامخة وأيضا .. بأسف
شديد ! فأجابها « باوندرباى » بأدب جم :

- أشكرك .. مدام ، أنا أيضا أتمنى هذا ، ربما
كنت لا تودين البقاء هنا بعد زواجى ، ولكننا بالطبع
نرحب بك معنا ..

فهزت السيدة رأسها فى كبرياء وقالت :

- لا يا سيدى .. ليس فى امكانى البقاء ..

فقال « باوندرباى » بسرعة :

- اذن .. هناك شقة كبيرة فوق المصرف - مدام

الفصل التاسع

كان السيد « باوندرباى » يخشى - الى حد ما -
أن يعطى مسز « سبارسيت » بأمر زواجه . كان
يتساءل فى نفسه « ماذا يا ترى سيكون رد فعلها »
ربما تترك المنزل فى الحال أو .. ربما لن تتحرك
بوصة واحدة من مكانها ، ربما - كما كان يعتقد -
تخطم قلبها أو .. ربما حطمت أثاث البيت -
اخيرا قرر أن يفتحها فى هذا الأمر فقال لها :

مسز « سبارسيت » .. سيدتى ، انك سيدة
عظيمة .. كريمة المتحد ، كما أنك سيدة حكيمة أيضا .

- وإذا قبلت العيش هناك فاعتقد أنك ستضيفين حيثة
لمكان العمل وسأدفع لك نفس راتبك الآن و ..

فقالتت مسز « سبارسيت » قائلة :

- أجل .. أجل ، لا حاجة بنا لمناقشة التفاصيل ،
ان فكرة الشقة والسكن فوق المصرف تبدو جيدة ، اذا
كان مركزى سيظل محفوظا كما هو الآن .

- أوه بالتأكيد يا سيدتى .. فما كان يمكننى أن
أقترح أى شىء أقل على سيدة نبيلة لها مثل أصلك
الرفيع .. بالطبع أنا رجل من الشارع ، ولكنك أنت
تعودت على الرفاهية !

- أجل ، يا سيدى انك بالغ العطف .

- ان الحجرات فوق المصرف مريحة جدا ،
ويمكنك أن تستخدمى امرأة لتنظيف المكان ، وفى المساء
هناك رجل لحراسة المكاتب ، وبالتالى سيقوم بحراستك
وخدمتك أيضا .

- لا تضيف شيئا يا سيد باوندرباى ، فأنا أقبل
عرضك شاكرة ..

ثم أضافت :

- ان الأنسة جراد جريند ستكون ما تتصنى و ..
تستمتعق يا سيدى .

فقال « باوندرباى » بضيق :

- أجل .. أجل .. أمل هذا .

بعد هذا الحديث ، أصبحت مسز « سبارسيت »
أكثر عطفا وأكثر أدبا مع السيد « باوندرباى » ..
انه فى طريقه الى أن يتزوج الزوجة التى يريدتها ..
ويستحقها ، لكن نظرة الأسف لم تفارق وجه مسز
« سبارسيت » ، هذه النظرة كانت تثير الحمرة والعرق
البارد فى وجه السيد « باوندرباى » .

حدد موعد الزفاف وأصبح السيد « باوندرباى »
يذهب الى (ستون لودج) كل مساء محملا بالهدايا
الشمينة .. الفساتين والأحذية المصنوعة خصيصا
للويزا . واتفق السيد باوندرباى والسيد جراد جريند
على الدوطة (المهر) .. كان كل ما يتعلق بالزواج عبارة
عن اتفاقات رجال أعمال و .. حقائق . الناس العاديين

يقولون - أحيانا - أن ساعات الحب تمر بسرعة شديدة
أو .. أحيانا ببطء شديد ، ولكن .. فى « ستون
لودج » اليوم أربع وعشرون ساعة تماما ، وإساعة
ستون دقيقة بالضبط .

أخيرا ، جاء اليوم العظيم ، « جوزية باوندرباى »
أغنى أغنياء كوكتاون تزوج « لويزا » ابنة « توماس
جراد جريند » عضو البرلمان . وتم الزواج فى أكبر
كنيسة بكوكتاون . وبعد المراسم والطقوس تناول
الضيوف طعام الافطار فى « ستون لودج » وبعد الافطار
ألقى السيد « باوندرباى » كلمة قال فيها :

« سيداتى وسادتى ، انا «جوزية باوندرباى» من
(كوكتاون) ، وانه ليشرفنى ويشرف زوجتى أن نرحب
بكم هنا . أنتم جميعا تعرفوننى ، تعرفون أنى بدأت
حياتى فى الشوارع وعلى هذا فلا تتوقعوا خطابا بليغا .
صديقى ووالد زوجتى « توم جراد جريند » عضو فى
البرلمان وهو الرجل الذى يمكنه أن يلقي عليكم خطابا
بليغا .

انى أشعر بالفخر اليوم .. فطفل الشوارع القذر
تزوج ابنة « جراد جريند » ! لقد رأيت السيدة فى
نومها وأعتقد أنها تستحق أن تكون زوجتى ، وفى
نفس الوقت فأنتم توافقون على أنى أستحقها ايضا .

شكرا سيداتى وسادتى لكل امنياتكم الطيبة
لنا . يمكننى أن أرى العديد من الضيوف غير المتزوجين
حول هذه المائدة ، وها هى أمنياتى لهم .. أتمنى لكل
رجل أن يجد زوجة مثله زوجتى .. وأتمنى لكل امرأة
أن تجد زوجا مثلى ! « ..

وبعد ساعة ، أصبح السيد والسيدة «باوندرباى»
على استعداد للرحيل لقضاء شهر العسل .. سوف
يسافرون الى فرنسا ، فالسيد باوندرباى كان ينوى
دائما أن يزور مصانع النسيج فى ليون . ولهذا .. سوف
ينذهبان الى ليون لقضاء شهر العسل !

وفى طريقها قابلت « لويزا » أختها على درجات
السلم ، فهمس لها قائلا :

- أنت أحسن أخت فى العالم ..

الفصل العاشر

كان يوما قاتظا في كوكتاون ، الكل يعرف أنه الصيف ، طبعاً ليس لسطوع الشمس أو للظلال التي تلقيها على الشوارع ، فالناس في كوكتاون لا يرون الشمس كثيراً ، لأنها دائماً تختفي خلف سحب الدخان المنبعثة من مصانع المدينة ولكن الكل يعرف أنه الصيف لأنه شهر يوليو ولأن المصانع أصبحت شديدة الحرارة .

مر عام منذ زواج باوندرباى بلويزا . وطوال هذا الوقت لم تحرر مسز سبارسيت باوندرباى من نظرات الشفقة التي كانت تلاحقه بها ، وفي هذا المساء كانت

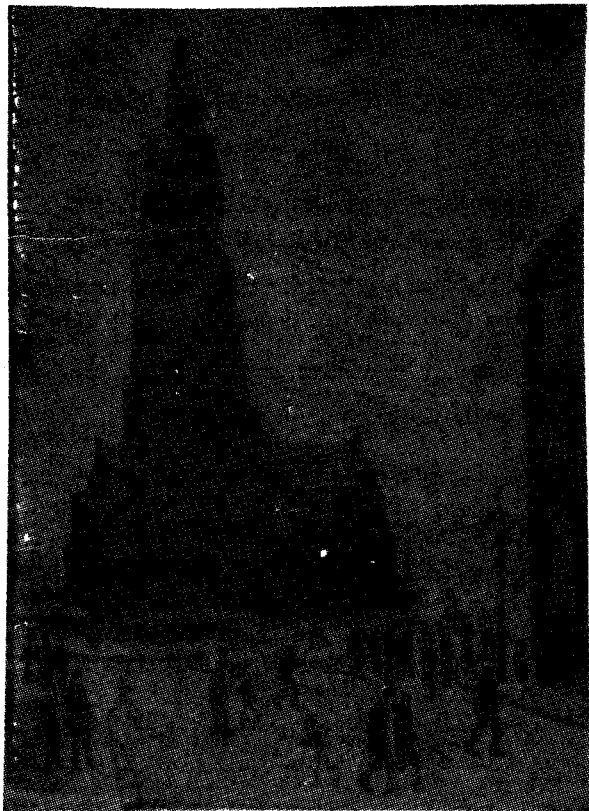
فوضعت ذراعها حوله ولكنها لم تستطع الكلام .
فقال هو :

— ان باوندرباى العجوز قد استعد .. يجب أن تذهبي الآن .. الى اللقاء سوف أكون في انتظارك حين عودتك .. أوه لوو .. اننى أسعد شباب كوكتاون بالقطع ، أليست الحياة رائعة !

تجلس فى النافذة المفضلة عندها - فلشقتها نافذتان تطلان على الشارع الذى يقع فيه المصرف - ولهذا تستطيع أن تشاهد ما يحدث فى المدينة . وفى كل صباح تراقب السيد باوندرباى وهو يعبر الشارع الى مكتبه ، وفى كل مساء تراه حينما يعود الى بيته . . كانت ترى اشياء كثيرة أخرى .

فى المساء حين يخيم الليل تصبح السيدة سبارسيت ملكة المصرف ، كانت تعتقد أنها هناك لتحرس المكاتب وخزانة المصرف ، معظم أموال كوكتاون كانت فى هذه الخزانة بجدرانها الحديدية وأقفالها الثلاثة ، كما كانت مسز سبارسيت رئيسة للسيدة العجوز التى تطبخ وتنظف بالاضافة الى أنها ترأس الحارس الشاب الذى يرقد كل ليلة على فراشه الموضوع أمام باب الخزانة .

فى هذا المساء شاهدت السيد باوندرباى وهو يذهب ، وبعد عشر دقائق انصرف موظفو المصرف ثم أحضر الحارس اناء الشاى للملكة . .



- حسنا سيدتى ، لقد تحدثوا وتجادلوا بالطبع .
انهم يحاولون انشاء نقابة لعمال النسيج !

- ان هذا سىء ، يجب على السيد باوندرباى
وأصدقائه ان يمنعوا هذه السخافات فى الحال . هذه
« الأيدى » يجب اخضاعها ، لن تكون هناك نقابات
عمال فى كوكتاون !

- أنت على حق تماما . . . سيدتى !

- آمل أن يكون سلوك موظفى المصرف جيدا وأنهم
يعملون بجد . . . هل يفعلون هذا يا بيتزر ؟

كان بيتزر يعمل أيضا فى المصرف أثناء النهار ،
وكان واجبه هو أن يحمل الأخبار للسيد باوندرباى
فهو يتسمع لحديث عملاء المصرف كما يتسمع لأحاديث
الموظفين . . . فيعرف الكثير من الأسرار والتي يحملها
أولا بأول الى باوندرباى . وعلى عكس سيسى جوب فان
بيتزر قد تعلم حقائق المعرفة التى درسها فى المدرسة
جيدا . ولم تكن هناك أية مشاعر انسانية تعتمل فى
نفسه أو خيالات وهمية تسكن عقله . كان شابا يفخر

- شكرا يا بيتزر !

- الشكر لك . . . سيدتى .

هكذا أجاب الحارس على مسز سبارسيت ، كان
شابا ذا شعر فاتح اللون ووجه شاحب لم يتغير كثيرا
فى الخمس سنوات الماضية ، مازال يملك ذاكرة عظيمة
فى حفظ الحقائق والمعلومات ، ولم ينس مطلقا البنت
رقم (٢٠) ، سألته مسز سبارسيت :

- هل أغلقت كل الأبواب والنوافذ يا بيتزر ؟

- أجل . . . سيدتى !

لم يكن لدى مسز سبارسيت الكثير من الزوار
لهذا كانت تستمتع بالحديث مع الحارس كل أمسية ،
وبينما هى تصب الشاى سألته قائلة :

- ماذا عندك من الأخبار اليوم ؟

- لا شىء يا سيدتى غير أن العمال سببوا المتاعب
ثانية ، ولكن هذا ليس جديدا أليس كذلك ؟

- وماذا فعلوا اليوم يا بيتزر ؟

السيد باوندرباي والسيد جرادجريند بحسن تربيته
وتعليمه .

وقبل أن يجيب على سؤال مسز سبارسيت الأخير،
صمت برهة ثم قال :

- أجل ، يا سيدتى . سلوكهم جيد جدا ، فيما
عدا . . . السيد المهذب يا سيدتى .
- آه . . . تقصد .

- السيد جراد جريند الابن يا سيدتى ، فان
بعض الشكوك تساورنى نحوه يا سيدتى .

- آوه بيتزر ، أنا لا أحب أن أسمع أسماء ، لقد
نبهت عليك من قبل ، اليس كذلك ؟

- حاضر سيدتى ، انى آسف !

- تذكر أرجوك . اننى مستولة عن المصرف فى
الليل . ان السيد باوندرباي قد عرف لى ولعائلتى
- مشكورا - قدرنا الاجتماعى ، لهذا يجب أن أكون
أمانة معه ، ولا يمكنى أن أكون كذلك اذا استمعت الى

أسماء تكون - للأسف - مرتبطة به . لهذا أرجوك
يا بيتزر . . . استعمل كلمة (الشخص) . . . !

توجه بيتزر الى النافذة ووقف أمامها وأخذ فى
الحديث :

- أجل يا سيدتى ، حسنا ، اذن الشخص الشاب
يسلك سلوكا غير طيب ، وهو أيضا لا يعمل بجد . . .
انه لا يعمل بجد اطلاقا منذ مجيئه الى المصرف ، فهو
كسلان جدا ، كما أنه ينفق الكثير ويتعاطى الخمر
بشراهة ولولا أن له صلة قرابة فى المصرف لما كان قد
عين فيه أبدا .

- آه . . . هممم

- كل ما أتمناه يا سيدتى ، هو ألا ينفق هذا
الشخص أموال قريبه ، اننا يجب أن نشعر بالشفقة
على السيد المهذب . . . السيد المهذب الذى عين هذا
الشخص . . . يا سيدتى .

- أجل يا بيتزر ، لقد كنت أشفق عليه دائما ،
وسأشفق عليه أبدا .

- ان الشخص الشاب تعود أن يبعثر أمواله .
يا سيدتى !

- كان يجب عليه أن يحذو حذوك يا بيتزر .

- أشكرك يا سيدتى . اننى أدخر جزءا كبيرا من
راتبى . . . ولكنه لا يدخر شيئا .

وفجأة استدار بيتزر من امام النافذة وتوجه
بالكلام لمسز سبارسيت :

- هناك سيد مهذب يقف فى الشارع ، كان ينظر
الى أعلى لدقيقة أو دقيقتين ، وهو الآن جاء الى الباب .

وفى اللحظة التالية سمعوا طرقا على الباب .
فتساءلت مسز سبارسيت قائلة .

- من عساه يكون ؟ لقد تأخر كثيرا عن موعد
المصرف ، ولكنى المسئولة الآن ، ولهذا . . . ربما كان
يجب على أن أقابله . افتح له من فضلك يا بيتزر .

وبعد دقيقة دخل بيتزر ومعه الزائر وقال :

- هذا السيد يود مقابلتك يا سيدتى .

ودخل خلف بيتزر شاب أنيق جدا يسير بلا مبالاة
ويتصرف بلا مبالاة ، وقد قررت مسز سبارسيت حال
أن رأته أنه . . . (جنتلمان) .

ثم تكلم الرجل :

- سيدتى . . . اسمحى لى من فضلك .

قال الرجل هذا بينما كانت مسز سبارسيت تكون
عنه صورة فى عقلها . . . « رجل فى الخامسة والثلاثين
من عمره ، له وجه مشرق وقسمات مليحة . . . أسنان
قوية . . . صوت جميل وعينان جسورتان ، ثم قالت :

- تفضل بالجلوس يا سيدى .

فقال الضيف :

- شكرا . . .

ولكنه لم يجلس بل وقف بالقرب من المنضدة
وقال :

- لقد تركت خادمى فى محطة القطار مع أمتعتى .
ان هذه المدينة غريبة حقا . هل تمانعين فى الاجابة على
سؤال يا سيدتى ، هل هى مظلمة هكذا دائما ؟!

- انها عادة ما تكون أكثر اظلاما ..

- لا يمكن !! عفوا .. اسمحى لى .. هل كنت تعيشين هنا باستمرار ؟

- لا يا سيدى ، فقط منذ وفاة زوجى . قبل هذا ، كنا نعيش فى ظروف مختلفة تماما .

- ألم تملئ العيش فى هذا المكان ؟

- اننى رهينة لواقع مؤسف يا سيدى ، ولكنى تعودت عليه .

- ربما كان هذا من الحكمة ..

- هل لى فى سؤال يا سيدى ؟ .. لماذا أردت رؤيتى ؟

- بالطبع ، أشكرك لتذكيرى ، اننى أحمل رسالة للسيد باوندرباى .. تقدمنى له . لقد سألت رجلا عن البيت الذى يعيش فيه السيد باوندرباى فأحضرنى الى هنا ، ربما كان يظن أن المصرف ما زال مفتوحا ، ان السيد باوندرباى لا يعيش هنا .. أم تراه يسكن هنا ؟
- لا يا سيدى ، انه لا يسكن هنا .

- شكرا لك .

وأراح السيد احدى رجله على زاوية المنضدة ،
وقال ببطء :

- لن أسلم له الرسالة هذا المساء ، ولكن على الأقل كان يجب أن أعرف مكان المصرف بالتأكيد أعتقد أنك تعرفين أين يعيش السيد باوندرباى ، سأكون سعيدا لو أخبرتنى .

لم تجب مسز سبارسيت وسكتت لبرهة ، فرفع السيد المهذب رجله من على زاوية المنضدة وانحنى عليها وقال :

- لا بد أنك تتساءلين عنى أكون

ثم أخرج رسالة من جيبه قائلا :

- هذه الرسالة معنونة للسيد باوندرباى ، انها من جراد جريند عضو البرلمان ، لقد تعرفت عليه فى لندن .

فتحركت مسز سبارسيت نحو النافذة وأشارت

أشكر لك تصحيح فكوتي ، وأشكرك أيضا على
معونتك . والآن يجب أن أرحل . . سعد مساؤك .

وهكذا رحل السيد المهذب ووقفت مسز سبارسيت
تراقبه وهو يتهدى فى الطريق . وبعد دقيقة جاء بيتزر
ليأخذ أدوات الشاي **وقال :**

- هذا السيد ينفق الكثير من المال على هندامه .
- حقا . . كانت ملابسه جميلة جدا .
- ولكنها لا تستحق المال يا سيدتى . . ربما
هذا السيد لا يشقى كثيرا فى سبيل الحصول على المال .
جلست مسز سبارسيت أمام النافذة لساعتين أو
ربما ثلاث ساعات ، لم تشعل المصباح حتى حين
أصبحت الغرفة مظلمة .

كانت نيران مصانع كوكتاون تضيء السماء بضوء
أحمر . أخيرا وقفت وتوجهت الى فراشها **وصوت من
داخلها يقول :**

- أوه . . انك أحقق !!
من هو هذا الأحمق . . لم تخبرنا مسز
سبارسيت !

بيدها نبين للزائر مكان بيت السيد باوندرباى . **فقال
لها السيد المهذب :**

- شكرا يا سيدتى . . أعتقد أنك تعرفين السيد
باوندرباى جيدا .

- أجل يا سيدى . . لقد عرفته لعشرة أعوام .
- وقت طويل ! لقد تزوج ابنة جراد جريند . .
اليس كذلك ؟

- بلى . . لقد حصل على هذا الشرف يا سيدى .
- حكى لى جراد جريند عنها ، انها امرأة ذات
عقل مدهش ، ذكية جدا وصعبة المراس . . آه ! انك
تبتسمين يا سيدتى ! ألا توافقين على هذا الكلام ؟ كم
عمر السيدة ؟ خمسة وثلاثون أو . . أربعون عاما ؟
فضحكت مسز سبارسيت وقالت :

- انها لا تزال طفلة ، لم تكن قد بلغت العشرين
حين تزوجت .

- حسنا ! ان هذا يدهشنى ! لقد جهزت نفسى
لمقابلة امرأة كبيرة حكيمة فى بيت السيد باوندرباى .

الشرق لكن الطقس ، كان حارا جدا بالنسبة له فعاد الى
الوطن ثانية .. لقد اشتغل بالكثير من الأعمال لكن
أيا منها لم يعجبه . وفى يوم من الأيام قال له أخوه
عضو البرلمان :

- جيم ان رجال الواقع الصعب يبحثون عن
رجال أكفاء ، لماذا لا تهتم بدراسة هذا الموضوع ؟

فاجاب جيم :

- هذه فكرة طيبة على الأقل .. ليس عندى خير
منها فى الوقت الحالى .

وعلى هذا أعطى الأخ الأكبر جيم كتابا أو كتابين .
واستغرق جيم فى دراسة الحقائق ، وفى نهاية الأسبوع
شعر أنه أصبح ماهرا جدا .

بعد هذا قابل أخوه السيد « جراد جريند » فى
البرلمان وقال له :

- توم .. اذا كنت تريد رجل حقائق فقابل
أخى ، انه يستطيع أن يدبج خطبا رائعة وله طريقة
ذكية .

الفصل الحادى عشر

« جيمس هارتهوس » .. هذا هو اسم زائر مسز
سبارسييت .. أصدقاؤه يدعونه « جيم » . وجيم هو
الأخ الأصغر لأحد أعضاء البرلمان الذى كان صديقا
حيما لمستر جراد جريند .

عمل « جيم هارتهوس » لفترة كضابط فى
الجيش ، ولكن كثرة الواجبات والالتزامات العسكرية
أتعبه ولهذا ترك الجيش ، ثم خدم الحكومة البريطانية
كموظف يتبعها فى بعض البلاد الأجنبية ولكن العمل
كان شاقا فعاد جيم الى انجلترا ، ثم سافر بعد هذا الى

بعد هذا بقليل وصل السيد «جيمس هارتهوس»
الى كوكتاون .. قابل مسز «سبارسيت» وأخذ غرفة
فى الفندق ، وفى الصباح التالى أرسل خادمه الى منزل
السيد باوندرباى حيث سلم الخادم رسالة السيد
« جراد جريند » الى :

(السيد « جوزيه باوندرباى » - كوكتاون .
بخصوص تقديم السيد « جيمس هارتهوس »
من « توماس جراد جريند »)

وبعد ساعة وصل السيد باوندرباى للفندق
وكان جيم ينظر حزينا من نافذة غرفة الطعام يحدث
نفسه قائلا : « الحقائق ليست شيئا مثيرا ، خصوصا فى
كوكتاون فقرر أن يستغرق فى شئ آخر ، عندما دخل
الخادم محضرا السيد باوندرباى الذى قال لجيم :
- اسمى يا سيدى .. هو جوزيه باوندرباى من
كوكتاون ..

- آه .. هذا شئ يدعو للسرور .
- هكذا رد هارتهوس وان كان لا يبدو مسرورا

على الاطلاق . واستأنف السيد باوندرباى حديثه قائلا :

- حسنا يا سيدى . ان كوكتاون ستكون بالتأكيد
مكانا غريبا بالنسبة لك ، لهذا .. اذا أصغيت الى ..
أو حتى اذا لم تصغ فسأحكى لك شيئا عنها .
- أوه .. أرجوك ..

- ان سكان لندن لا يحبون مدينتنا عادة لأنها
مظلمة ومملوءة بالدخان ولكن .. الدخان هو طعامنا
وشرابنا يا سيد هارتهوس وهو غير ضار على الاطلاق
بل على العكس ! انه مفيد - فى الواقع - لأجسامنا ..
لهذا تجدنا لا نريد أن نتخلص من دخان مدينتنا . بل
نريد أن نحفظ به .

قرر هارتهوس أن يمضى فى هذه التجربة لهذا
قال .

- أجل ، بالطبع يا سيد باوندرباى . أنا أوافقك
تماما .

- أنا سعيد بهذا ، حسنا والآن اليك بعض
الحقائق .. ان مجال عملنا هو صنع الملابس والنسيج .

انه أفضل وأسهل عمل فى العالم و (الأيدي) عندنا
تحصل على أجور أعلى من أى عمال آخرين وليس
بإمكاننا أن نجعل مصانع نسيجنا أفضل من الآن ..
الا اذا فرشنا أرضياتها بالسجاجيد الهندية .. ونحن
لن نفعل هذا !

- معك الحق تماما يا سيد باوندرباى .

- الناس هنا لا يرضون أبدا .. انهم يريدون
أفضل قطع اللحم الأحمر كل يوم ، ويريدون أن يأكلوه
بشوكة من ذهب ! والآن هم يتحدثون عن نقابة عمال
لهم ! هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل ؟ حسنا ،
ان عمالنا لن يحصلوا على مثل هذه الأشياء يا سيد
هارتهاوس .

- أعتقد أنك على حق تماما يا سيد باوندرباى !

- أنا أحب أن أفهم الرجل ، كما أن الرجل يجب
أن يفهمنى ، لقد أخبرتك بالحقائق ، ولسوف ..
أساعدك هنا على قدر استطاعتي . بقى عندى شيء
واحد أحب أن أخبرك به يا سيد هارتهاوس انك تنتمى

لعائلة ميمى أما أنا فلا يا سيدى . اننى لست الا قطعة
قذرة من الشارع حيث ولدت .

- هذا يجعل كل شيء أفضل يا سيد باوندرباى !

- وأنا أعرف قذارة الشارع جيدا ، ولكنى نأيت
بنفسى وارتفعت عنها يا سيدى ، بمجهودى الخاص وأنا
فخور بنفسى .. مثلك تماما . ربما كنت على علم بأنى
تزوجت ابنة توم جراد جريرند ، فاذا لم تكن مشغولا
هذا الصباح ، فهل تفضل باصطحابى الى بيتى ؟ فانه
سيكون من دواعى سعادتى أن أقدمك لابنة توم جراد
جريرند .

- يا سيد باوندرباى .. لقد لمست أعز أمنياتى .

وعندما قابل جيمس هارتهاوس السيدة
باوندرباى .. أحس بالنشوة ، كانت صامتة وفى
غاية الهدوء ، تبدو غير مبالية ولكنها كانت تتأمل الزائر
عن كثب . وبقدر ما كانت مغرورة وباردة .. كانت
أيضا تشعر بالحنين لسلوك زوجها وأسلوبه اللفظ .
ان جيم لم ير فتاة مثلها من قبل ، كانت جميلة .

لديها أسبابها . انها تعرف كل الحقائق والمعارف التي
فى العالم أجمع ، يا سيد هارتهوس ، اذا كنت تريد
أن تتعلم بسرعة فليس فى استطاعتى أن أقترح عليك
معلما أفضل من لوو باوندرباى ..

فقال هارتهوس :

- كلى ثقة أنه لن يكون هناك من هو أفضل .
- اننى غالبا لا أحسن اطراء الناس، لم أتعلم هذه
العادة - فأنا لا أعد من النبلاء ، سيد هارتهوس ، أنا
جوزيه باوندرباى من كوكتاون وحسب ، وهذا يكفينى .
اننى لا ألقى بالا لطريقة الشخص أو مكانته .. آخرون
غيرى يفعلون ، أعرف هذا ، أما أنا فلا ..

فابتسم جيم للويزا وقال :

- ان السيد باوندرباى مخلوق نبيل يحيا حياة
برية منطلقة ! أما أنا .. فليست الا شيئا مسكينا تم
ترويضه !

بالرغم أنها كانت تحاول السيطرة على نظرنا . وقد
خمن جيم أنها من النوع الذى لا يعتمد على أحد الا على
نفسه ، كان يعتقد أنها لم تعان الحيرة مطلقا اللهم الا
اذا كان كل شىء يدعو للشك . كانت تقف هناك ..
أمامه .. ولكن عقلها كان يبدو شاردا وحيدا . لم
يستطع جيم أن يفهمها .. على الأقل حتى الآن ..
أجال جيم بصره فى الغرفة . لم يكن بها ما بنم
عن لمسات المرأة وروحها . لا بهجة .. ولا رفاحية ..
لا شىء يدل على ذكريات سعيدة . كانت الغرفة فقط
ثقيلة وفاخرة الرياش و .. قبيحة

وبعد تقديم السيد هارتهوس قال باوندرباى :

- لوو .. ربما أصبح لكوكتاون - عن قريب -
عضوان فى البرلمان .. أبوك والسيد هارتهوس . ان
السيد هارتهوس قد جاء ليتعرف على المكان ..

ثم توجه بالحديث لجيم قائلا :

- كما ترى يا سيدى ، فان زوجتى تصغرنى فى
العمر . أنا لا أعرف لماذا تزوجتنى ولكن .. لا بد أن

فقلت لويزا بهدوء :

- انك تجل السيد باوندرباى كثيرا ، وانا غير مندهشة لهذا .

فى الواقع ان الذى اندهش هو جيم .. لأنه لم يفهمها ..

ثم قالت لويزا :

- انك تنوى خدمة بلدك . وتأمل فى أن تجد حلولا لكل مشاكلها .

فضحك جيم وقال :

- لا ، يا مسز باوندرباى ، لست أسعى لايجاد أية حلول . لقد رأيت الكثير ، هنا وهناك ، لأنى سافرت بعيدا . ولكن كل ما رأيت كان عديم الأهمية .. كل ما رأيت بدا لى عديم الأهمية ، اننى أسلك هذا الطريق بناء على آراء والدك لأنها آراء طيبة ، مثلها مثل آراء أخرى .

فسألته لويزا :

- أو ليست لديك أراؤك الخاصة يا سيد هارتهوس ؟

- لا .. على الاطلاق . وليس مهما أن تكون لى آرائى ، ان أى مجموعة آراء ستكون على قدر مماثل من الجودة مثل غيرها ! .. أو على قدر مماثل من الضرر مثل غيرها ! يا مسز باوندرباى ان المثل الايطالى يقول « ان ما قدر له أن يكون ، حتما سيكون » وهذه هى الحقيقة الوحيدة . ألا توافقين ؟

هذا النوع الحظر الذى يفتعل الاخلاص بدا وكأنه أعجب السيدة . ولهذا استنرد جيم بسرعة :

- ان الحقائق والأرقام يمكنها أن تكون مملوءة بالمتعة . انها تعطى أحسن الفرص للانسان . اننى أستمتع بها جدا ، ولكنى .. لا أصدقها . ولهذا فأنا سأعمل من أجل الحقائق والواقع ! ولم يكن باستطاعتى أن أفعل أكثر اذا كنت أصدقها .

فقالت لويزا :

- انك ستصبح عضوا غير عادى فى البرلمان .
- ليس صحيحا على الاطلاق . فنحن جميعا لنا نفس الأفكار ولكن .. قليل منا الأمين بدرجة تكفى لأن يصرح بهذا .

وأثناء هذه المحادثة بدا أن السيد باوندرباى على وشك الانفجار . أصبح وجهه ككرة كبيرة حمراء وقد قاطع الحوار فجأة قائلا :

- سيد هارتهاموس ، انه ينبغي أن تزور بعضا من أعيان هذه البلدة وأنا جاهز لاصطحابك الآن . بعد هذا لا بد أن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء .

وهكذا تمت الزيارات وقد تكلم هارتهاموس جيدا مع كل السادة والوجهاء ، ولكن العمل أتعبه وعلى مائدة العشاء فى منزل السيد باوندرباى ، كانت هناك أربعة مقاعد ، ولكن الجالسين كانوا ثلاثة فقط وقد أخذ السيد باوندرباى يتحدث عن الشارع حيث ولد ، بينما كانت الحسابات الطويلة قد أتعبت السيد هارتهاموس بالفعل .

حتى أنه فكر أن يذهب الى الهند ثانية أو أن يذهب الى مصر ، ربما فعل هذا لو لم تملأ لويزا حيزا كبيرا من أفكاره . كان يتساءل فى نفسه قائلا :

- هل هناك شئ فى العالم .. يمكنه أن يحرك عضلات وجهها !؟

أجل ، هناك هذا الشئ ، فقد فتح الباب ودخل أخوها توم فتغير وجه السيدة بمجرد أن رآته . كانت لها ابتسامة جميلة حقا ! مدت يدها وعانقت أصابعها أصابع توم بقوة ، فقال جيم فى نفسه :

- « آه .. نعم .. ان هذا الجرو هو جيبها الوحيد » !

وتم تقديم الجرو وجلس الى المائدة ، لم يكن اسما لطيفا ، ولكن ربما كان توم يستحقه .

قال باوندرباى :

- لقد تأخرت يا توم الابن ، لماذا ؟

وأخيها ، لم يكن هناك الكثير في الشاب الصغير . وكان
غرا . . . وكان أحيانا فظا حتى مع أخته ، فقال جيم في
نفسه :

« لا بد أن قلبها يعانى الوحدة ، فإذا كان هذا
الجرى يستحوذ على كل حبيها ، فإن قلبها حتما يعانى
الوحدة » !!

- كان عندى عمل كثير يجب أن أنهيه ، على أى
حال لا يهم أنى تأخرت ، اليس كذلك ؟

فقال باوندرباى :

- ان السبب لا يجب أن يتأخروا عن موعد
الطعام .

وفهم جيم مشكلة هذا المنزل . قال محدثا لويزا :

- مسز باوندرباى . ان وجه أخيك يبدو مألوفاً
لى فهل ترانى قابلته فى المدرسة ، أو فى الشرق .
ربما ؟

فاجابت لويزا قائلة :

- ، لقد تعلم هنا ، فى البيت وهو لم يسافر
خارج انجلترا للآن . . . أم نراك سافرت يا توم ؟

- لم أكن محظوظا بما فيه الكفاية يا سيدى لكى
أسافر خارج انجلترا . . .

وطوال العشاء كان جيم يفكر فى مسز باوندرباى

- حسنا . مسيو هارتهوس هل برمت بالسيد
باوندرباى الليلة ؟

- انه شخص ممتاز .. !

- هل تعتقد هذا .

فابتسم « هارتهوس » بلا مبالاة وقال :

- ان له أخ زوجة ظريفا ..

فقال « توم » :

- أنت تقصد ، أن باوندرباى العجوز زوج أخت
مضحك للغاية .

- أوه ! هذا ليس لطيفا يا توم !

كان توم مسرورا بنفسه ومعجبا بهارتهوس ..
وبملابس هارتهارس .. بصوت هارتهوس ، كما
أعجبه أن يناديه بتوم .. هكذا بسرعة . كانت أمسية
رائعة !

الفصل الثانى عشر

بعد العشاء وأثناء الأمسية التى قضها « جيم »
فى منزل عائلة باوندرباى، حاول « جيمس هارتهوس »
أن يشجع « توم » الابن على الكلام .. كان ينسوى
أن يجعله يحبه . أخيرا حان وقت ذهاب جيم الذى
قال أنه لا يستطيع تذكر طريق العودة الى الفندق
فعرض الجرو أن يصحبه ليريه الطريق . وفى الفندق
أمر جيم بالشراب له ولصديقه ، وجلس توم على
مقعد طويل مريح . كانت المشروبات التى أحضرها
الساقى قوية . وبدأ « توم » الحديث قائلا :

قال « توم » :

- انى لم أكن اى حب لباوندرباى العجوز فى يوم من الايام ، ولست انوى أن أفعل .

- انك لا تستطيع أن تقول هذا الكلام بالقرب من زوجته . أم تراك تستطيع ؟

- أختى ؟ أوه أجل ! ..

وأخذ « توم » جرعة كبيرة من كأسه ثم استأنف حديثه قائلاً :

- ان « لوى » لا تحب باوندرباى العجوز هى الأخرى !

فقال « هارتهوس » :

- انك لا تعنى ما تقول !

- بل .. اعنيه . ان هذا صحيح .. انها لا تحبه .

- ولكنها تزوجته يا توم ويبدو انها يعيشان فى سعادة سويًا .

- أنت تعرف أبانا . أنه ليس بالأمر المدهش ان تنزوج « لوى » من « باوندرباى » العجوز . انها لم تعرف فى حياتها رجلاً آخر وقد اقترح أبى « باوندرباى » العجوز وقبلته « لوى » .

- هذا هو واجب البنت الطيبة !

- بل قل .. واجب الأخت الطيبة ..

لم يعلق هارتهوس بينما استطرد الجروفي الكلام :

- لقد أقنعتها أن تنزوج باوندرباى العجوز ، فقد كنت أقحمت على مصرفه بالرغم من أنى لم أكن أود أن اعمل هناك ، واذا كانت لويزا قد رفضت باوندرباى العجوز ، فانى كنت سأقع فى متاعب كثيرة لقد أخبرتها بهذا ووافقت هى على الزواج به .. انها كانت على استعداد أن تفعل أى شىء من أجلى .. انها طيبة جدا .. أليس كذلك .

- جدا !

- لم يكن مهما بالنسبة لها أن تعرف رجلا
آخر فبيتنا كان كالسجن .. خاصة حين غادرته أنا
.. ولكن الأمر كان هاما بالنسبة لي فقد كان على أن
أفكر في رفاهيتي وربما في مستقبلتي ، ولوو كانت
طيبة جدا فيما يتعلق بهذا .

قال هارتهوس وهو يصب مزيدا من الشراب :

- أجل بالتأكيد ، وهي تبدو سعيدة تماما .

- حسنا ، ان الفتاة يمكن أن تكون سعيدة
في أى مكان بالاضافة الى ان « لوو » ليست فتاة
عادية . ففي امكانها أن تغلق على نفسها داخل
نفسها وتفكر .. فقط تفكر أحيانا بالساعات !

- أجل ، أجل ، ويمكنها أن ترفه عن نفسها !

- لا .. لا أعتقد هذا فقد ملأ أبى عقلها بكل
أنواع المعلومات والحقائق الجافة . هذه هي طريقته
- لقد شكلها .. جعلها مثله تماما ؟

- أجل وفعل نفس الشيء مع كل من حوله
لقد شكلنى أنا أيضا بنفس الطريقة !

- لا يا توم ، لست أنت !

- بل فعل يا سيد هارتهوس ، لقد كنت
غيبا تماما .. كنت جمارا .. عندما تركت البيت
لم أكن أعرف أى شىء عن الحياة .

- أوه ! .. هذه نكتة يا توم ، أنا لا أصدق
هذا .

- بل هى الحقيقة ! ..

ومرة أخرى أخذ توم جرعة كبيرة من الشراب
ووضع قدمه فوق المقعد واستطرد قائلا :

- بالطبع . لقد تعلمت القليل منذ هذا الوقت
وقد فعلت هذا بنفسى ولا فضل لأبى فيه .

- وأختك الذكية ؟

- أختى الذكية لم تتغير ، فقد اعتادت أن
تشكو لى أنها لا تتمتع بأفكار الفتاة العادية وأنها

لا تعرف أى شيء عن الحياة وعن الحب • ولكن البنات
يختلفن عن الرجال •• لأنهن لا يحتجن الكثير •
توقف توم عن الكلام فقد راح فى النوم وهو
على المقعد ، فركله هارتهاوس وهو يقول :
- ان الوقت متأخر ، قم وعد الى البيت !

فوقف توم وقال :

- هذه المشروبات كانت جيدة ولكنها لم تكن قوية
بما فيه الكفاية بالنسبة لى •
- لا لم تكن قوية بما يكفى •
- كانت مثل الماء •• آه •• حسنا ، طاب
مساؤك •

وحمل الساقى توم الى الشوارع • كان
باستطاعته أن يمشى الى البيت وحده ، لكن •• لم
يكن باستطاعته أن يتذكر ما قال !

الفصل الثالث عشر

شكل عمال النسيج فى كوتناون نقابة تحت قيادة
« سلاكبريدج » • لم يكن سلاكبريدج عاملا بل كان
متحدثا وخطيبا وحسب ، كان يريد أن يحصل العمال
على أجور أعلى وظروف معيشية أفضل • وبالرغم من أن
سلاكبريدج لم يكن رجلا عادلا أو أميناً جدا •• الا أن
العمال وافقوا عليه وانضموا جميعا - ماعدا رجل
واحد - الى النقابة ، وفى كل أسبوع كان العمال يدفعون
بعض البنسات لسلاكبريدج •

وفى احدى الأمسيات ، عقد العمال جميعا اجتماعا

بعد هذا صافح الرئيس ستيفن بلاكبول ثم
جلس .. وجلس سلاكبريدج أيضا . ثم بدأ بلاكبول
في الكلام :

- أيها الزملاء .. اننى العامل الوحيد فى مصنع
نسيج باوندرباى الذى لم ينضم الى النقابة . ولن أنضم
اليها . ان النقابة لا يمكنها أن تساعدنى ، كما انى لا
أعتقد أنها ستساعدكم . كما ان لدى أسبابى الخاصة
لعدم الانضمام لهذه النقابة ، وهى أسباب سرية ولكنها
على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لى !

فانتفض سلاكبريدج من مقعده وأخذ يصيح :

- هذا الرجل سوف يدمركم .. سوف يدمركم
أنتم وأطفالكم وأطفال أطفالكم .

فقال ستيفن :

- ان السيد سلاكبريدج خطيب والخطابة هى
صنعتة وهو يأخذ أجره عليها ، اذن فليؤد عمله ولتدعونى
أؤدى عملى ، انه لا يعرف آلام حياتى .. انها مشكلتى ..
مشكلتى وحدى .

فى صالة واحدة كبيرة ، رأس الاجتماع أكبر العمال
سنا . وفى هذا الاجتماع أخذ سلاكبريدج يخطب ويشنى
على النقابة وفى نفس الوقت يذكر بسوء هذا الرجل
الذى رفض الانضمام للنقابة .

فصاح أحد المجتمعين :

- من هو هذا الرجل ؟ اذا كان هنا الليلة فدعه

يتكلم !

وفى الحال تصاعدت أصوات كثيرة :

- نعم ، فلنستمع اليه ، يجب أن يأخذ فرصته

فى الكلام !

فصعد رجل على المنصة . كان وجهه يبدو مرهقا

وينم عن كبر فى السن ، ولكنه أيضا .. كان وجها

شريفا . فقال الرئيس :

- ان السيد سلاكبريدج يجب أن يكون عادلا ،

ولهذا يجب أن يجلس بينما نصغى جميعا « لسيفن

بلاكبول » وانكم جميعا تعرفون ستيفن الطيب وتعرفون

مشكلته .

بمفردى .. بينكم . وآمل أن تسمحوا لى بذلك ..
لأنى يجب أن أعمل لأعيش يا أصدقائى . لقد عملت
فى كوكتاون منذ طفولتى .. فأين عسائى أن أذهب
الآن ؟

وران الصمت على المكان .. نزل ستيفن من فوق
المنصة وتحرك الرجال فأفسحوا له طريقا الى الباب ..
لم ينظر ستيفن فى وجه أى منهم ، وسار مباشرة نحو
باب الخروج وفى دقيقة كان خارج القاعة ..

صاح سلاكيريدج :

- ليس بيننا مكان لرجل شرير .. يا عمال
كوكتاون قوموا بواجبكم ! والآن فلننتهف ثلاثا لنقابتنا !

وصرخ الخطيب بأول « هوراه » .. ثم شاركه
عشرون صوتا فى الثانية .. ثم صاح الجميع بالثالثة .
وهكذا بدأ ستيفن بلاكبول حياة وحيدة ..
موحشة . فلم يعد ينظر فى وجه رجل فى المصنع أو
فى الشارع .. ولا أحد يكلمه ولو كلمة واحدة ، حتى
النساء اللاتى كان يعمل معهن التزمّن الصمت . حقا

فصاح أحد الحاضرين قائلا :

- اجلس يا سلاكيريدج دع الرجل يأخذ فرصته
فى الكلام !

فاستأنف ستيفن حديثه :

- زملائى العمال .. اننى أعرف ما سيحدث ،
فاذا لم أنضم لنقابتكم فانكم ستعزفون عن صداقتى ،
ولا بد لى أن أتقبل هذا .

فقال الرئيس فى تودد :

- فكر مرة أخرى .. قبل أن يفوت الآوان .
فرد ستيفن :

- لقد فكرت فى الأمر كثيرا يا سيدى ، فوجدت
أنى ببساطة .. لا أستطيع الانضمام لنقابتكم .
لم يكن ستيفن غاضبا من هؤلاء الرجال ، انه
يعرفهم جيدا وهم أيضا يعرفونه .. ولهذا استمر فى
حديثه معهم فى ود ظاهر قائلا :

- كل ما يجب على أن أفعله هو أن أعمل ..

وبصوت عال سأل باوندرباى ستيفن بلاكبول

قائلا :

- حسنا ، يا ستيفن ماذا فعل بك رعاع كوكثاون ؟

كان فى الغرفة أربعة أشخاص يتناولون الشاي . .

السيد باوندرباى ، زوجته ، أخوها ، والسيد النبيل

القادم من لندن . بينما وقف ستيفن يحتضن قبعته عند

الباب استأنف باوندرباى حديثه قائلا :

- هيا . . أسرع يا ستيفن ، خبرنى ، فهأنذا

أنتظر .

يا له من صوت أجش . . لم يكن ستيفن يحب

سماعه خاصة بعد أربعة أيام من الصمت التام . .

وقال ستيفن .

- لقد تسلمت رسالتك يا سيدى . . ان شابا قال

لى أنك تريد أن تتحدث الى .

- حدثنى عن نفسك . . وعن هذه النقابة !

- آسف يا سيدى . ليس عندى ما أقوله فى هذا

المصدد .

فزفر باوندرباى بصوت كصوت رياح عاتية . .

ثم قال :

ان ستيفن كان دائما رجلا هادئا . . ولكنه الآن يشعر

بوحشة كاملة . لم يعد يرى راشيل وفى نفس الوقت

هو يخاف أن يبحث عنها .

وَصَسِبَتْ الأيام التى أعقبت الاجتماع ثقيلة

وطويلة . وفى الليلة الرابعة غادر ستيفن المصنع فى

موعد المعتاد وبينما هو سائر أوقفه شاب له شعر فاتح

اللون . . كان بيتزر !

قال بيتزر لستيفن :

- أنت بلاكبول اليس كذلك ؟

ومن فرط سعادة ستيفن لسماع صوت انسان

يخاطبه ، رفع قبعته تحية للشاب واجابه :

- بلى ، يا سيدى .

- ان السيد باوندرباى يريد أن يراك . فهل

نعرف أين يمكن . .

- أجل .

- اذن اذهب اليه . . انه فى انتظارك !

- هل تسمع هذا يا هارتهاموس . هذا واحد من
« الأيدي » التي تعمل عندي . وقد كنت أعتقد أنه بدأ
ينحدر . وقد حذرته ، والآن هؤلاء الحمقى وصومه
وهو يخاف أن يفتح فمه !

- لست خائفا يا سيدي ، ولكن ليس عندي شيء
أخبرك به .

- هذا مضحك يا ستيفن ! هل تريد أن أصدق
أن « سلاكبريدج » لا يسبب المشاكل هنا .

- أنا أسف يا سيدي . فعندما يكون زعماء الناس
أشارا فهذا ليس ذنب الناس ، لأنهم ليس باستطاعتهم
الحصول على زعماء أفضل !

- والآن . . هارتهاموس . . اسمع لهذا وسوف
تعلم شيئا عن متاعنا . .

قال باوندرباي هذا ثم نفخ زفيره الحاد واستأنف
حديثه متوجها الى ستيفن :

- خبرني يا ستيفن . . لماذا رفضت الانضمام لهذه
النقابة ؟

- لم أكن لأقول شيئا عن هذا يا سيدي ، ولكنك
سألتني ولهذا سأجيب . لقد قطعت على نفس عهدا
بهذا .

- لا يا سيدي . ليس لك .

فصاح باوندرباي :

- بالطبع ليس لي ! هؤلاء الأشخاص لا يفكرون
في مطلقا . . أوه . . لا !

استدار ستيفن الى السيدة باوندرباي قائلا :

- لا يا سيدتي ، ليسو رعاغا ، ولا لوصا ، أنا
أعرف أنهم لم يكونوا رحيمين بي . ولكنهم جميعا
يعتقدون أنهم يقومون بواجبهم . وهذه هي الحقيقة . أنا
أعرفهم جيدا . لقد عشت بينهم حياتي كلها . يجب أن
أقول الحقيقة فيما يتعلق بهم . أنهم شرفاء وصادقون
وطيبون وهم أيضا أناس ظرفاء ومحبوبون .

قهقه باوندرباي وقال وهو يضحك :

- ولكنهم لا يحبونك يا ستيفن !

- سيدي ، أنا لست متحدثا لبقا ، ولكني أعرف
مشاكلهم . اننا نعيش في مدينة غنية جدا . وفي نفس
الوقت هي مدينة فقيرة جدا . آلاف العمال يعملون في
المصانع ، وهم جميعا يؤدون نفس العمل وقد بدأوا
حينما كانوا أطفالا صغارا . وهم لا يتوقفون عن العمل
حتى يلحقهم الموت . سيدي . . . أنظر الى بيوتنا . .
انها صغيرة . . . مظلمة ومزدحمة . ليس لدينا أمل في
شيء طيب في حياتنا . فيما عدا الراحة الطويلة التي
تأتي في النهاية ! . . .

واستمر ستيفن في الكلام :

- انك تتحدث عنا يا سيدي . . . وتكتب عنا ،
وتتحدث في البرلمان باسمنا . وأنت دائما على حق -
بالطبع - ونحن دائما مخطئون ! ان حياتنا عبارة عن
« لخبطة » يا سيدي « لخبطة » عظيمة !

فقال باوندرباي :

- وكيف . . . كيف نصحح هذه اللخبطة ؟

- انهم يحبون كل زملائهم العمال يا سيدي . .
وأنا زميل . . . عامل . . .

واستمر ستيفن في توجيه كلامه لمسز باوندرباي :

- ان الأشياء الطيبة فيهم - كالشرف والواجب -
تسبب لهم أحيانا المتاعب وتدفعهم أحيانا لارتكاب بعض
الأخطاء . لكنهم يحبون اتيان الشيء الصحيح والخطأ
ليس دائما خطأهم .

تملك الغضب من باوندرباي ، فهذا الموضوع ليس
من شئون مسز باوندرباي حتى يوجه لها ستيفن
الكلام لهذا قال :

- اسمع يا ستيفن . ان هذا السيد - وأشار
لهارتهاوس - عضو في البرلمان جاء من لندن وهو يريد
أن يتقصى الحقائق ، والآن أخبرني ، أرجوك ما الذي
تشكو منه ؟

- أنا لا أشكو يا سيدي . لقد جئت الى هنا لأنك
طلبت أن تتحدث الى .

- حسنا ، فما الذي يشكو منه « الأيدي » ؟

السبيل لانهاء هذه اللخبطة ، ولكنى أعرف الأشياء التى لا يمكن أن تصلحها ، فاستعمال اليد الحديدية لن تصلحها . . . والسلبية التامة لن تصلحها . واذا فرضنا أن أحد الجانبين دائما على حق فان الجانب الآخر سيكون دائما على خطأ ، وهذا أيضا لن يصلحها . . . هناك عالم أسود فارغ بين الجانبين يا سيدي . . . وبقاؤهما متباعدين هكذا لن يصلح هذه « اللخبطة » فنحن رجال ونساء . . . ولسنا أرقاما ميتة أو آلات . . . ان لنا قلوبا وعواطف . . . أمنيات وذكريات و . . . مخاوف ، مثلكم تماما يا سيدي !

ثم فتح - ستيفن الباب ووقف ينتظر . فى الوقت الذى أصبح فيه وجه باوندرباى شديد الحمرة ، ثم قال باوندرباى :

- آه يا بلاكيول . . . انها الملعقة الذهبية ثانية ! أنتم دائما تتشاكرون . هذه هى مشكلة حياتكم ، أليس كذلك ؟

فهز ستيفن رأسه وقال :

- اننى لست الا عامل نسيج يا سيدي !

- ليس بإمكانى الاجابة على هذا يا سيدي . . . انها مهمة الزعماء . . . هنا وفى البرلمان .

فصرخ باوندرباى قائلا :

- أعرف ! سوف نقبض على سلاكبريدج وأمانا ونضعهم فى السجن .

فهز ستيفن رأسه وقال :

- هذا لن يغير شيئا ، يا سيدي . فاللخبطة هنا . . . كانت موجودة قبل مجيء سلاكبريدج . . .

ثم أشار الى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال :

- انك اذا وضعت هذه الساعة فى السجن . فان الزمن لن يتوقف يا سيدي !

فنظر باوندرباى بسرعة وحدة الى ستيفن ثم حرك عينيه تجاه الباب . ففهم ستيفن ووضع يده على مقبض الباب ليخرج ، ولكن كان عليه أن يدافع عن شرف من ينتمى اليهم - أولا - فنظر الى السيد هارتهوس وقال :

- اننى لست رجلا متعلما يا سيدي ولا أعرف

- انك تسبب الكثير من المشاكل ، لدرجة انه حتى النقابة قد ضجرت منك . لم اكن ابدا اعتقد ان هؤلاء الرعاى يمكن ان يكونوا على صواب فى اى شىء . ولكنى الآن اوافقهم . . لانى انا ايضا ضجرت منك !
فرفع ستيفن عينيه بسرعة فى وجه باوندرباى الذى قال له :

- خذ اجرك فى نهاية الاسبوع ، ثم اذهب الى مكان آخر .

فقال ستيفن :

- ولكن سيدى ، اذا لم استطع ان اعمل معك . . فلن يكون باستطاعتى ان اجد عملا فى اى مكان آخر . . انت تعرف هذا يا سيدى !
- وهذه مشكلتك انت !

فنظر ستيفن الى مسز باوندرباى . . ولكنها لم تكن تنظر اليه ، فاستدار الى الباب وغادر الغرفة . . !!

الفصل الرابع عشر

كان الظلام قد بدأ يزحف على المدينة حينما غادر ستيفن منزل باوندرباى . وفى الطريق كانت فى انتظاره مفاجأة ، فى الحقيقة . . مفاجأتان . . فقد قابل هذه العجوز الغريبة التى كان قد قابلها منذ أكثر من عام أمام بيت السيد باوندرباى . أما المفاجأة الثانية . . فهى أن راشيل كانت بصحبة السيدة العجوز!

فقال :

- آه ! راشيل . . عزيزتى ! وانت ايضا
يا سيدتى ! هل أنت معها ؟

فاجابت السيدة العجوز :

- نعم يا سيدي ، بالرغم أننا لم نتقابل الا الآن .
كنت أرقب بيت السيد باوندرباي منذ الصباح ، فقد
سمعت أنباء عن زواجه وكنت آمل أن أرى زوجته .
ولكنها لا تغادر البيت مطلقا ، ثم .. ومن عشر دقائق
فقط أخذت أتكلم مع هذه الشابة الطيبة وأخذت تتكلم
معي ..

مرة أخرى شعر ستيفن أنه لا يجب هذه المرأة .
لم يكن يفهم هذا الشعور ، لأنها كانت تبدو امرأة طيبة
وبسيطة . وعلى أي حال فقد أجابها بطريقته المهذبة
المتعادلة قائلا :

- حسنا يا سيدتي .. أنا رأيت السيدة باوندرباي ،
إنها شابة جميلة . عيناها السوداوان مملوءتان بالفكر
وطريققتها هادئة .

- صغيرة وجميلة ! أجل ، وسعيدة !؟

فقال ستيفن بتردد :

- اني .. أفترض هذا .



منظر من المدينة

- تفترض ؟! بل لا بد أن تكون سعيدة ! انها زوجة رئيسكم !

فنظر ستيفن الى راشيل نظرة لها مغزى وقال :

- لن يكون ريمسى بعد هذا الاسبوع .

فتساءلت راشيل بقلق بالغ :

- هل تنوى ترك المصنع ؟

- يجب على أن أفعل . ان هذا أفضل شيء . . . لي وللعمال أيضا . يجب أن أرحل عن كوكتاون وأبحث عن عمل فى أى مكان آخر .

- واين ستذهب يا ستيفن ؟!

- لا أدرى ، ولكنى سأجد مكانا . . .

كان يكره أن يترك راشيل ولكن هذا سيكون أفضل لها ، فالعمال لن يفتصبوا منها ان هو رحل . وقال :

- انى أشعر أن روحي أخف الآن يا راشيل !

فابتسمت له بحنان وسار ثلاثتهم ، وسأل ستيفن السيدة قائلا :

- هل ستبقين فى كوكتاون الليلة يا سيدتى ؟!

- نعم ، سأقضى الليلة فى الفندق الصغير المجاور للمحطة ثم أعود لبيتى فى الصباح .

- تفضلى عندى يا سيدتى لتتناول قدحا من الشاى وستأتى راشيل أيضا . بعد هذا سأوصلك للفندق يا سيدتى . فقد يمر وقت طويل قبل أن يتسنى لنا أن نلتقى ثانية يا راشيل .

وافقت المرأتان ، ووصلوا جميعا الى الشارع الضيق حيث يعيش ستيفن الذى نظر بخوف الى أعلى ، فوجد نافذته ما زالت مفتوحة كما تركها فى الصباح . ولم يكن ثمة أحد . فقد فرت زوجته منذ شهر مضت ، وكان على ستيفن أن يشتري أثاثا جديدا للبيت . انه لا يعلم أين ذهبت . . .

أشعل ستيفن المصباح ثم أخذ يعد الشاى بينما كانت راشيل تقطع بعض الحبز والزبد . استمتعت السيدة العجوز بالعشاء وبدت عليها السعادة . وسألتها ستيفن :

- اننى لم أسألك قط عن اسمك يا سيدتى ؟
- اسمى مسز « بيجلر » . وقد مات زوجى منذ
سنتين . كان رجلا طيبا جدا .

- انى آسف يا سيدتى . هل لديك أبناء ؟
فارتعش القدح فى يد مسز بيجلر وأجابت متلعثمة:

- لا . . . لم يعد لى أبناء ، لم يعد لى !

فهمست راشيل لستيفن قائلة :

- مات يا ستيفن !

فقال ستيفن بحزن :

- أعتذر يا سيدتى لتوجيهى هذا السؤال . . . أننى
ألوم نفسى لأنى . . .

فقالت السيدة العجوز :

- كان لى ولد . . . كان يعمل بجهد واجتهاد ، ولكنى
لا أحب أن أتكلم عنه لأنه . . . لقد فقدته !

فى اللحظة التالية سمع الجميع ضوضاء على درجات
السلم ، فذهب ستيفن وفتح الباب فوجد المرأة التى
تملك المتجر الذى يقع أسفل غرفته . . . فكلمها . وسمع
الجميع - راشيل ومسز بيجلر - المرأة وهى تنطق باسم
« باوندرباى » . ففزعت مسز بيجلر وانخفضت واقفة
وهى تقول :

- أوه ، خبثونى . . . لا تدعوه يرانى . . . أرجوكم !!
فتساءل ستيفن فى دهشة :

- ماذا بك يا مسز بيجلر ، انه ليس السيد
باوندرباى ، بل السيدة زوجته ولا أعتقد أنك تخافين
منها . أليس كذلك ؟ منذ ساعة كنت تظنين أنها سيدة
رائعة !

فقالت مسز بيجلر :

- هل هى السيدة . . . أنت واثق ؟!

- تمام الثقة !

- اذن . . . سوف أقف هناك فى الركن . . . وأرجوك
ألا تتحدث الى .

أخذ ستيفن المصباح ونزل الى أسفل ، ثم عاد بصحبته لويزا ثم دخل « الجرو » في اثرهما : كانت هذه أول مرة تزور فيها لويزا بيت أحد العمال في كوكتاون . كانت تعرف الكثير من الحقائق الجافة عن هؤلاء الناس وعن حياتهم ، كانت تعرفهم كما تعرف . . الحشرات التي درستها في كتب العلوم ، انهم يبنون أعشاشا ويعملون ، وهذه الغرفة . . كانت أحد أعشاشهم !

أخذت لويزا تجيل البصر في الغرفة للحظات ولاحظت قطع الأثاث القليلة المتناثرة فيها ورأت أيضا بعض الكتب و . . المرأتين . وخمنت لويزا أن المرأة الصغيرة ليست زوجة ستيفن . في هذا الصباح كان ستيفن يتوجه بجديته الى مسز باوندرباى والآن وبنفس الطريقة توجهت مسز باوندرباى بجديتها الى راشيل :

- لقد جئت لأساعدكم ، اذا سمحتم لي ، هل تعرفين ماذا حدث ؟ هل أخبرك ؟
- أخبرني بأنه سيترك العمل في المصنع .

- وعندما يترك العمل في مصنع زوجي . . أن يستطيع أن يعمل في أى مكان آخر في كوكتاون . هل هذا صحيح ؟
- أجل ، أيتها السيدة الشابة ، فالكل قد وضعوه في القائمة السوداء . .

فقاطعتها لويزا قائلة :

- ان أصدقاءه العمال سيرفضون العمل معه لأنه فض الانضمام الى نقابتهم ، ولنفس هذا السبب لن يقبل أى صاحب عمل الحاقه بمصنعه . قولى لي . . هل نعهد لك بالأا يلتحق بالنقابة ؟

فاجهشت راشيل بالبكاء وقالت من خلال دموعها:

- لم أكن أود هذا ، آه يا رجل المسكين ، كنت فقط أود أن ينأى بنفسه عن المشاكل . . من أجله هو لم أكن أبدا أعتقد أنه سيفقد وظيفته . والآن . . الآن هو يفضل الموت على أن يحثن بوعده .

فأخذ ستيفن يدها في يديه بحنان وقال لها :

- اننى أحمل لك حبا وتقديرا عظيمين يا راشيل ،

وقد أسعدني أن قدمت لك وعدا ، ويسعدني أن أحافظ
على هذا الوعد .

فنظرت لويزا اليه باحترام شديد ثم قالت له بركة :

- ماذا تنوى أن تفعل ؟

- سوف أرحل يا سيدتي . سأحاول أن أجد عملا

في مكان آخر .

- وكيف ستسافر ؟

- سأمشي على قدمي !

فقالت لويزا وهي تفتح حقيبتها وتخرج منها أربعة

جنيهات وضعتها على المنضدة :

- راشيل .. أنت تعرفينه جيدا .. وفي إمكانك

أن تقنعيه ، دون أن تؤذي مشاعره أن هذه النقود نقوده

هلا فعلت ذلك ؟

- لا أستطيع أيتها السيدة الشابة ، أنت عطوفة

جدا فقد فكرت في شخصي مسكين ، ولكنه هو وحده

الذي يستطيع أن يقبل هذه النقود أو لا يقبلها

وللحظات غطي ستيفن وجهه بيديه .. ثم ابتسم

وقال :

- كلاكما سيدتان طيبتان ، ان الانسان ليس لديه

الا القليل من الكبرياء ، ولكني لن أكون غيبيا وجاحدا

سوف آخذ جنيهين يا سيدتي . وسوف أعيدهما حينما

أجد عملا . وسيكون هذا أحب عمل عملته في حياتي .

والتقط ستيفن جنيهين ، ووضعت لويزا جنيهين

في حقيبتها . طوال هذا الحديث كان أخوها جالسا على

السرير . والآن أصبحت لويزا مستعدة للذهاب فنهض

توم وقال :

- انتظري دقيقة يالوو .. هل يمكنني أن أتحدث

اليه ؟ فقد خطرت لي فكرة .. بلاكبول تعال معي للخارج

للحظات .

فتحرك بلاكبول في اتجاه المصباح .. فصاح توم

قائلا :

- لا .. لا يا رجل ، لسنا في حاجة للمصباح .

تبع ستيفن توم الى الخارج وأغلق توم الباب

خلفهما . ثم همس توم محدثا ستيفن :

ثم اندفع هابطا درجات المسلم وانتظر أخته في الشارع ..

أحست مسز بيجلر بانطباع طيب تجاه « السيدة المحبوبة » . أوصلها صديقاها الى الفندق وتمنيا لها ليلة سعيدة . ثم مشى ستيفن وراشيل معا الى منزل راشيل . كانا قد قررا ألا يتقابلا ثانية قبل أن يغادر ستيفن كوكتاون . قالوا كلمات قليلة عن الحب والرفاهية وتواعدا على تبادل الرسائل ثم ودع كل منهما الآخر .

عمل ستيفن أيام الثلاثاء .. الأربعاء والخميس ، وفى كل ليلة من ليالى هذه الأيام كان يقف أو يتمشى بالقرب من المصرف . ولكن بيتزر لم يكلمه مطلقا برغم أنه كان يراه كل ليلة كما كان يرى مديرة بيت السيد باوندرباى تطل من النافذة التى تطلو المصرف ، وفى مساء الخميس ، انتظر ستيفن لساعتين ولكن شيئا لم يحدث كان يشعر كأنه لص كلما نظر اليه المارة وهو واقف .

باع ستيفن أثاث بيته ولهذا نام على الأرض فى

- اننى أود مساعدتك . لا تسألنى عن التفاصيل ، لأنها مجرد فكرة . اسمع اننى أعمل فى المصرف وأنت تعرف الحارس « بيتزر » بالطبع . متى ستغادر كوكتاون ؟

فقال ستيفن :

- ان اليوم هو الاثنين .. سوف أرحل يوم الجمعة أو السبت .

- حسنا ، سأحاول أن أساعدك . كل ما عليك هو أن تنتظر بجوار المصرف فى المساء . مساء الغد وكل مساء حتى ترحل . سوف أخبر أختى عن هذا وأعرف أنها ستوافق . لا تحدث بيتزر بنفسك فاذا استطعنا أن نفعل أى شيء من أجلك فسوف يحيل بيتزر اليك رسالة . هل فهمت ؟

- أجل ياسيدى .. هذا واضح تماما .

فتح توم الباب ونادى على لويزا :

- هيا يالوو .. أنا جاهز !

ليلة الخميس . يغادر غرفته قبل الخامسة صباحا . .
كانت الطرقات خالية تماما .

وبعد ساعتين ألقى نظرة للخلف من فوق تل .
كانت السماء تشرق ساطعة فوق المدينة ، وكانت
الأجراس تدق ايذانا ببدء العمل والدخان الأسود بدأ
يتصاعد للسماء . .

وأحس ستيفن وكأنه صبي صغير وسمع صوت
تغريد الطيور عاليا حوله . . كأنه رسالة غرام من
راشيل . . !

الفصل الخامس عشر

يملك السيد هارتهوس حصانا يركبه عندهما
يكون متوجها لحضور اجتماع ما ، كما أنه أحيانا يكون
عليه أن يسافر الى قرى تبعد عدة أميال . ومن الجدير
 بالذكر أن أعماله في المدينة لا تستهلك الكثير من وقته .
فهو يلقي بعض الخطب والمحاضرات ، وهو رجل محبوب .
أما أفضل أصدقائه فهم آل باوندرباي . . وأفضلهم على
الأطلاق هي . . مسز « باوندرباي » !

كانت لويزا معجبة ببعض أفكاره البوهيمية .
كانت تذكر دائما قوله : « ان ما قدر له أن يكون . .

صغير غير بعيد عن البيت والقطارات تمر كثيرا فادمة
من أو ذاهبة الى كوكناون .

وكانت للبيت حديقته الخاصة .. كانت هناك
أشجار كثيرة ومقاعد مريحة فى الظل الرطيب فى اتجاه
كوكناون ، وكانت تلال الفحم القديمة تترك علامات
سوداء على الطريق ، كانت الأعشاب تنمو حول المباني
الحالية وتكاد أن تخفيها، كما كانت الأعشاب والحشائش
تغطى بعض قمم التلال القديمة . كان المكان يبدو خطرا
خاصة فى الليل . ولكن البلدة كانت تبدو منتعشة
وخضراء فدخان كوكناون كان بعيدا .

أحبت لويزا المكان، ومكثت هناك معظم فترات هذا
الصيف الحار . بينما كان يذهب السيد باوندرباى الى
هناك فقط أثناء الليل أو فى أيام الآحاد . وهو لا يمتطى
الحيل فى معظم الأحيان ولكن كان هناك اسطبل لدسته
من الحيل وقد دعا السيد هارتهوس للاقامة فى هذا
البيت الريفى . فقد قال له السيد باوندرباى :

- لن تحتاج لأن تدفع أجر اسطبل فى كوكناون ..

حتما سيكون » فهذا القول كان يتفق بصورة مع بعض
معتقداتها . ولكن السيد هارتهوس كان يعتقد أن كل
الأشياء عديمة الأهمية .. فارغة . ولويزا لا توافق على
هذا الرأى على اطلاقه . ولكن هذا الرأى لم يكن جديدا
عليها بالتأكيد ! وهو رأى غير ضار أيضا . كانت لويزا
تستمع بالحديث معه .

لاحظ هارتهوس تغيرا طفيفا فيها وتذكر كل ما
قال له أبوها . فبدأ يفهمها .. ببطء .. وبدأ يفهم
أسلوبها . بالطبع .. هو لم يتسنى له أبدا أن يعرف
مدى عمق وقدرة عقلها ، فعقله كان ضيقا جدا على هذا .
وقد اعتاد أن ينظر اليها ويقول فى نفسه :

- « ان وجهها يصبح جميلا حقا حين ترى «الجرو» .
لكم أتمنى أن يصبح وجهها بهذا الجمال من أجلى » !

كان السيد باوندرباى قد اشترى بيتا فى الريف ،
فقد أعجبتة الى حد ما فكرة أن يكون عنده بيت فى المدينة
وبيت فى الريف .. كان بيته الريفى بيتا كبيرا يبعد
خمسة عشر ميلا من كوكناون .. وكان هناك خط حديدى

- أنت شديدة معي ، وأنا أستحق هذا ! فأنا كلب
عديم الأهمية ، أعرف هذا .. لكنني لست منافقا ..
انني مهتم بأخيك !

- هل هناك - حقا - شيء يهيك في الدنيا يا سيد
هارتهاوس ؟

- فيما يخص توم .. نعم . لقد فعلت الكثير من
أجله .. بل ان حياتك كلها تدور حوله ..

فتمحركت لويزا فجأة على مقعدها .. واستطرد
هارتهاوس :

- ولكن سامحيني - ثانية .. فأنا مهتم به من
أجله هو ...

ثم ابتسم وقال :

- ليس بذات أهمية اذا ما كان شابا ما عديم
التفكير .. جاحدا أو .. فظا بعض الشيء أو اذا ..
أنفق كثيرا ، حسنا .. هل توم له هذه الخصال ؟
- أجل !

احتفظ بحصانك هنا ويمكنك أن تبقى أنت أيضا ..
اذا كنت تحب هذا .

في يوم من أيام الصيف الحارة .. على مقعد في
الحديقة .. تحت الظل الرطيب .. والسيد هارتهاوس
يحاول أن يجعل وجه لويزا يبتسم من أجله .. جلس
الى جوارها عصر هذا اليوم وقال :

- آه مسز باوندرباي ، اني أود أن أتحدث اليك
في موضوع يخص أخاك ، صديقي الشاب توم ..

وفي الحال توردت لويزا فقال هارتهاوس
في نفسه : « رائحة الجمال حقا » ..

ثم استأنف حديثه قائلا :

- سامحيني يا مسز باوندرباي ، ان النظرة التي
اطلت من عينيك لتثير الغرور في نفس توم ، لم أكن
أستطيع تجنب ملاحظتها ، كما اني معجب بها ..

- انني أنتظر يا سيد هارتهاوس ، ماذا تحب أن
تقول .. لئلا يخص توم ؟

- وهل يقامر ؟

- أعتقد هذا ..

وبعد لحظات من الصمت عادت لويزا وقالت :

- أجل .. انى أعرف انه يقامر ..

- وبالطبع .. يخسر ؟

- أجل .

- ان كل من يقامر يخسر بعض المال ! هل لى

ان أسأل .. هل تمدينه أحيانا بالمال الذى يقامر به ؟

ان هذا ليس من شأنى، أعرف ولكنى أعتقد أن توم ربما

يعانى بعض المتاعب ، وأحب أن أساعده اذا كان هذا

ضروريا .. ومن أجله .. طيبا ..

لم تقل لويزا شيئا فاستطرد هارتهوس فى

حديثه :

- ان توم لا يتمتع بمزايا كثيرة ، ربما لم تعده

أفكار والده المحترمة لمثل هذا .. العالم القاسى ..

والسيد باوندرباى رجل طيب وقوى - هذه حقيقة -

ولكنه ليس بالشخص الذى يلجأ اليه توم عندما يقع

فى المتاعب .

- هذا صحيح .. صحيح تماما

- حسنا ، اذن - مسز باوندرباى - اننى مستعد

لتقديم المساعدة . ان لى بعض الخبرة فى مثل تلك الأمور ،

وإذا أخبرتنى الحقيقة ف ..

ولكن لويزا قاطعته :

- حاول أن تفهمنى يا سيد هارتهوس ، أنا لا

أشكو شيئا ، كما ترى أنى غير آسفة على أى شىء

فعلته ...

فقال هارتهوس فى نفسه : « مملوءة شجاعة

أيضا ! »

بينما استمرت مسز باوندرباى فى حديثها :

- ان أختى اقترض منى بعض المال منذ عام أو

يزيد .. بعث بعض المجوهرات ..

توقفت لويزا عن الكلام ونظرت الى السيد

هارتهوس . لقد باعت بعض المجوهرات التى اشتراها

لها زوجها . هذه هى الحقيقة .. يمكن حتى للانسان

الغبي ان يخمنها ، وهارتهاوس لم يكن بالانسان الغبي .
ثم اكملت لويزا حديثها :

• منذ هذا التاريخ أعطيت أخى الكثير من المال .
ومنذ أسبوعين طلب منى مائتى جنيه ، ولم يكن عندى
هذا المبلغ . وانى لقلقة جدا عليه يا سيد هارتهاوس .
ولكنى لم أخبر أحدا سواك بهذا السر .

فقال هارتهاوس بهدوء :

• ان نوم لم يكن حكيما ، كل الرجال تأتى عليهم
فترات يفقدون فيها الحكمة فى تصرفاتهم ، وأنا لا ألومه
لهذا ، ولكنه ارتكب ذنبا آخر . . . ذنبا أخطر .
ولا يمكننى أن أسامحه عليه .

• لماذا ؟ ماذا فعل ؟ أخبرنى أرجوك !

• لقد كنت أمينة معى يا مسز باوندرباى ، ولهذا
سأكون أمينا معك . . اننى لا أستطيع أن أسامح نوم
على سلوكه الفظ معك . يجب عليه أن يكون رقيقا
وعطوفا معك فى كل فعل أو قول أو حتى نظرة تصدر
منه على مدى عمره كله فأنت أفضل أصدقائه وحبك

ورعايتك له يفوقان الوصف . ولكن ماذا أعطاك . .
أو حتى عرض أن يقدم لك ؟ . . لا شيء ! . . على ما
اعتقد . . اللهم الا كلمات قاسية وأسلوبا قبيحا .

بعد هذا الكلام بدت أشجار الحديقة وكأنها طافية
على سطح من الدموع أمام لويزا ، كانت عينها
تترقرقان بالدمع من أجل شيء ما دفين فى أعماقها .
ولكنها لم تهيبها بعض السلوى .

واستكمل هارتهاوس حديثه قائلا :

• اننى شخص بوهيمى بما فيه الكفاية يا مسز
باوندرباى . ولم أحاول قط أن أكون طيبا أو شاكرا
ولهذا فانا أعرف تماما أى شرك وقع فيه نوم .
وسأحاول أن أساعده ليتخلص منه ، سوف أحاول
أن أمنعه من المغامرة .

قال هذا ثم نظر الى أعلى فوجد شخصا بالقرب
من البيت فأشار اليه وقال :

• لا بد أنه أخوك ، فلنذهب لنقابله .

ساعدهما على النهوض وتابطت هي ذراعه . كان
توم يضرب بعض الحشائش بعصا ، كانت فى يده عندما
وأهها صاح :

- أهلا ! لم أكن أتوقع وجودكما هنا .

فقال هارتهاموس :

- آه ! كنت تتوقع احدى شابات كوكتساون
الجميلات - على ما أعتقد - وبالطبع خيينا رجاءك .

فرد توم :

- انى أرجو أن تقع فى حبنى سيدة غنية جدا ..
حتى لو كانت عجوزا قبيحة .. فلن أفرط فيها أبدا !

- انك دائما تفكر فى النقود يا توم .

- ان كل انسان يفكر فيها .. أختى أيضا ..
اليس كذلك يا لوو ؟

فردت لويزا قائلة :

- لا يا توم ، ليس دائما .

فقال هارتهاموس :

- يبدو أن توم غير سعيد اليوم ويجب علينا
الا نثير قلقه .

- أنا أعرف كيف تفكر أختى يا سيد هارتهاموس ،
وهى تعرف أيضا .

- لا تصدقيه يا مسز باوندرباى ، فهو وان كان
غير مهذب .. الا ان بإمكانى أن أخبرك بفكرته عنك !

فقال توم :

- اننى أمتدحها ، عندما لا تهتم بالنقود .
وسأفعل هذا ثانية اذا كان لدى سبب وجيه . ولكن
هذا لا يهمك يا سيد هارتهاموس بالاضافة الى أنى تعبت
منه أيضا .

وصلوا الى البيت فدخلت لويزا بينما وضع السيد
هارتهاموس يده على كتف توم وقال له :

- توم .. دعنا نتمشى قليلا فانا أريد أن أتحدث
معك !

وجلسا على سور واطىء فى نهاية الحديقة .

- والآن يا توم .. ما المشكلة ؟

- أوه يا سيد هارتهوس ! انى مفلس كما انى
واقع فى مشكلة .

- يا صديقى العزيز . . أنا أيضا مفلس .

- ولكنك لست متورطا فى أية متاعب ، ان أختى
كان من الممكن لها أن تساعدنى . . لكنها لم تفعل .

- انك تنتظر منها الكثير . لقد أعطتك الكثير من
المال ! فكم تحتاج الآن ؟

- فات الآوان يا سيد هارتهوس . لم أعد فى
حاجة الى المال الآن . كان يمكن للوو أن تحصل عليه
من أجلى من زوجها باوندرباى العجوز . لقد تزوجته
من أجلى ، ألم تفعل ؟ ولكنها رفضت أن تسأله شيئا
من أجلى ، ولو كانت لطيفة معه . . لأعطاها كل ما
تطلب ، ولكنها ليست لطيفة معه . . ولو حتى من أجلى !

كانت هناك بحيرة صغيرة بالقرب منهما فى
الحديقة فأحس هارتهوس فجأة بأنه يود أن يقذف
بهذا الجرو فيها . ولكنه احتفظ ببرود أعصابه وقال :

- حسنا يا توم . . دعنى أحاول أن أكون المصرف
الخاص بك

- المصرف الخاص بى ؟

وانقلبت سحنة توم وشحب وجهه وقال :

- أرجوك . . لا تتكلم عن المصارف والمصرفيين !

فتعجب السيد هارتهوس ، لماذا يبدو على «الجرو»
التعب والمرض هكذا ؟ ثم قال :

- اسمع يا توم . . عندما تقع فى أية متاعب ،
دعنى أعرف قبل أن تتفاقم . وسأحاول أن أدلك على
طريق سهل للخروج منها .

- أوه ، أشكرك يا سيد هارتهوس انك صديق
حقيقى ، وكم كنت أتمنى لو انى عرفتك منذ زمن .

- ولكن . . يجب أن تفعل شيئا من أجلى يا توم
كن أكثر عطفًا مع أختك . . دعها تشعر بوضوح أنك
تحبها .

- سوف أفعل ، يا سيد هارتهوس ، وسوف
أبدأ فى الحال . . هذا المساء .

وبر توم بوعله فقد بادر أخته فى مساء ذلك
اليوم وقبل العشاء . . .

- أرجوك أن تسامحينى يا « لوى » انك تعلمين
أنى أحبك ولم أكن أريد أن أبدو غير عطوف !

بعد هذا أصبحت تمنح ابتسامتها الجميلة للسيد
هارتهاوس أيضا . فقال جيم فى نفسه :

« هذا طيب . . طيب جدا . ان ما قدر له أن
يكون حتما سيكون » !!

الفصل السادس عشر

لم يكن هارتهاوس أقل سعادة فى صباح اليوم
التالى ، فقد أشرقت ابتسامة لويزا الجميلة من أجله ،
وكان لا يفتأ يردد بينه وبين نفسه : « ان عينيها أشبه
بقطعتين براقتين من الماس » !

وفى مساء أحد الأيام ، فى الساعة السادسة ،
عاد هارتهاوس من اجتماع جماهيرى ، وبينما هو يضع
حصانه فى الاسطبل . . اذا بالسيد باوندرباى يظهر
فجأة ويصيح :

- هارتهاوس ! هل سمعت الأنباء ؟

فقال باوندرباى بضيق :

- أشكرك ! ربما أصبح المبلغ المسروق عشرين ألفا لو أن اللص لم يضطرب . اننى المصرفى الأول فى كوكتاون . . يا سيدى !

وهنا وصلت لويزا وبصحتها مسز سبارسيت وبيتزر فاستأنف باوندرباى كلامه :

- ها هى ابنة جراد جريند . . لقد سقطت مغشيا عليها عندما أخبرتها .

كان وجه لويزا يبدو شديد الشحوب ، فذهب إليها جيمس هارتهوس ومد لها ذراعه لتتأبطه بينما أخذ باوندرباى - باستياء - ذراع مسز سبارسيت ومشى الجميع الى البيت بينما قال هارتهوس :

- مستر باوندرباى . . كيف حدث هذا الشيء المروع ؟!

فصاح باوندرباى بغضب :

- كنت أحاول أن أخبرك ، ولكنك كنت مهتما

- آية أنباء يا سيدى ؟

- لقد سرق مصرفى !

- مستحيل !

- بل واقع ، لقد سرق الليلة الماضية - يا سيدى

- بواسطة مفتاح مصطنع .

- وكم يبلغ المبلغ المسروق ؟

- ان هذا لا يهم يا رجل ! انه . . ليس كبيرا

فى الحقيقة . ولكن . . كان من الممكن أن يكون كبيرا جدا .

ولكن هارتهوس أعاد السؤال فى اصرار :

- كم ؟

- حسنا ، ليس أكثر من مائة وخمسين جنيها ،

ولكن الكم ليس مهما على الاطلاق ، فالشئ المهم هو . .

الواقع . . ان مصرفى قد سرق !

- أجل . . أجل بالطبع ، ولكنى سعيد لأن المبلغ

ليس كبيرا .

شيئا ما لم يقلق هذا الشخص .. بيتزر ! حتى السابعة صباحا ! عندما رأى باب خزانة توم المفتوح . كان القفل مكسورا والخزانة خاوية !

تلقت السيد هارتهوس ثم تساءل :

- وأين توم الآن ؟ .

فأجابه السيد باوندرباي :

- كان يساعد الشرطة وهو الآن ينهى عمله اليومي في المصرف .

- وهل لدى الشرطة أية أفكار .. عن اللصوص؟

فانفجر باوندرباي صائحا :

- بالطبع يا سيدي ! فعندما يسرق جوزيه باوندرباي ، لا بد أن تكون لديهم أفكار ! وهي سر في الوقت الراهن ، ولهذا لا تتكلم عنها ، انه .. واحد من « الأيدي » .

فقال هارتهوس بتكاسل :

- أرجو ألا يكون صديقنا بلاكيول !

فقط بكمية المال المسروق ! حسنا ، أمس مساء ، أغلقنا كل شيء كالمعتاد . كان هناك الكثير من المال في الغرفة المحصنة ، وكان لدى توم الصغير خزانة حديدية صغيرة في مكتبه ، وهذه الخزانة كانت تحتوى على مائة وخمسين جنيها .. .

فقاطعه بيتزر قاتلا :

- بل مائة وأربعة وخمسين جنيها وسبعة شلنات يا سيدي

فكاد باوندرباي أن ينفجر وصرخ في وجه بيتزر :

- لا تقاطعنى يا بيتزر ! لقد سرقت لأنك كنت تغط في نوم عميق ! المهم ، أغلق توم الصغير خزانته على مبلغ مائة وخمسين جنيها ثم راح بيتزر في النوم على سريره الموضوع أمام الغرفة المحصنة . وفي الليل جاء اللص - أو اللصوص - وكسروا الخزانة وسرقوا المال . ثم أثار شيء ما اضطرابهم ففروا وتركوا المكان عن طريق الباب الرئيسى الذى فتحوه بمفتاح مصطنع وقد وجد المفتاح ملقى فى الشارع هذا الصباح . ولكن

- بل هو ، كنت قد حذرته من قبل . . . عندما
كان يريد انهاء حياته الزوجية . وحذرته ثانية في
الاسبوع الماضى . .

فقالت لويزا فى صوت خافت :

- لا يمكن أن يكون بلاكبول !

فصاح باوندرباى :

- اننى أعرف هؤلاء الناس ! أعرفهم جيدا ،
لقد غادر بلاكبول المدينة ، لقد ذهب ولا أحد يعرف
أين هو الآن . تماما مثلما فعلت أمى بى عندما كنت
صغيرا . ولكن . . ماذا فعل قبل أن يرحل ؟

ابتسم باوندرباى ابتسامة صفراء وقال :

- ان مسز سبارسيت تعرف الاجابة على هذا ،
وبيتزر وبعض جيران المصرف ، كلهم يعرفون الاجابة
أيضا .

فتساءل هارتهائوس :

- ماذا فعل ؟

- أخذ يراقب المصرف ، ليلة بعد ليلة ! لقد مكث
بجوار البنك يراقب وينتظر
- ان هذه قريبة ضده .

- ولكن بلاكبول ليس اللص الوحيد فقد كانت
هناك امرأة عجوز أيضا ، رآها الناس وهى تراقب
بيتى ومصرفى ، كانت تقف أمام بيتى عندما جاءنا
بلاكبول الاسبوع الماضى ، ثم رحل كلاهما معا .
وهنا تذكرت لويزا المرأة العجوز التى رأتها فى
غرفة بلاكبول .

وأضاف باوندرباى :

- يجب علينا أن نلتزم الهدوء ، ولكننا سنمسك
بهم ، لا يمكن أن يفلتوا من جوزيه باوندرباى !

فقال هارتهائوس :

- يجب أن يعاقبوا بكل قسوة القانون . فمن
يسرقون المصارف يجب أن يتلقوا أقصى العقاب !

تحول باوندرباى الى زوجته وقال لها :

- لور ، ان هذه المشكلة قد أرهقت مسز سبارسييت ، اعطى على راحتها هنا .

فقالت مسز سبارسييت :

- شكرا جزيلا سيدى . ولكن لا تؤرق نفسك بشأن راحتى . فان أى شىء سوف يريحنى .

وهكذا ، بدأت مسز سبارسييت تمارس نظرات الشفقة على السيد باوندرباى وكم كانت سعادتها بهذا وكانت تشاركه لعب الورق ، كما كانا يفعلان عادة ، وكانت تصنع له مشروبات ساخنة خاصة فى الليل ، كانت فى الواقع تنصرف كأم له ، ولم يكن يبدو على لويزا أنها تلاحظ السيدة مطلقا .

عاد توم الصغير متأخرا هذا المساء ، كان الكل تقريبا نائمين فيما عدا لويزا التى ما ان سمعت وقع أقدامه على درجات السلم حتى توجهت بهدوء الى مخدعه .

كان توم على وشك أن ينام عندما لفته لويزا بذراعها ، فتحرك محاولا النهوض وهو يقول فى فزع :

- من هناك ؟ من .. ! ما الخبر ؟

فقالت لويزا :

- توم العزيز . اليس لديك ما تود أن تخبرنى به ؟

- ماذا تقصدين يالوو ؟ .. هل كنت تحلمين ؟

- عزيزى توم ، لا تخفى عنى أى شىء ، فلن يغير أى شىء من حبى لك .. قل لى الحقيقة !

- ماذا تريدان أن تعرفى ؟

احتضنته لويزا بقوة وقالت له بحنان :

- لن ألومك أبدا ، يا توم . بل سأنقذك .. أيا كان الثمن . اليس عندك ما تود اخبارى به ؟ .. فقط قل : « أجل » وسأفهم ..

- أنا لا أفهم ما تقصدين يالوو . انك فتاة شجاعه وطيبة وتستحقين أن يكون لك أخ أفضل منى ولكن .. عودى الى فراشك الآن .. عودى الى فراشك !

ولكنها سألته :

- هل اكتشفت الشرطة شيئا جديدا ؟
- لا .. فقط ما أخبرك به باوندرباى العجوز
- هل أخبرت أى انسان بأمر زيارتنا لغرفة بلاكيول ؟
- لا .. لقد طلبت منى أن أحفظ هذا الأمر سرا ..
- نعم .. فلم أكن أتصور وقتها أن هناك من يخطط لسرقة المصرف ..

فقال توم بسرعة وكأنه ينفي تهمة :

- ولا أنا ، فمن أين لى أن أتصور هذا ؟
- هل يجب أن تخبر أحدا ؟ هل يجب أن أخبر -
- أنا - أحدا بأمر تلك الزيارة ؟
- لا تسألينى رأى يالوو .. ! افعلى ما تشاءين
- فلم تكن الزيارة فكرتى ..

ثم نهضت لويزا وقالت بصوت حازم :

- توم .. هل تعتقد أن بلاكيول سرق المصرف ؟!

- لا أعرف .. ربما فعل !

- كان يبدو رجلا شريفا ..
- كان سعيدا أن أخذ منك نقودا ، لقد حادثته خارج الغرفة وقلت له أنه محظوظ بحصوله على هذين الجنبيين .. هذا كل ما أعرف .. ربما كان شخصا طيبا جدا ..
- أليس عندك شيء آخر تريد اخبارى به ؟
- لا شيء .. انك لا تريد منى أن أكذب عليك ..
- أليس كذلك ؟

- لا بالطبع .. لا أريد ذلك ..

- حسنا ، اذن عودى الى مخدعك الآن فانا متعب .. تصبحين على خير يالوو ..
- بعد ذهابها قام توم بسرعة وأغلق باب حجرته بالمفتاح ثم ألقى بنفسه على سريره وأجهش بالبكاء !!

ملايسه ، وعند مغادرته المنزل تحضر له قبعته ،
وقد اعتادت أن تقبل يده وهي تهمس :

- انك عطوف ياسيدى ! عطوف جدا .
ولكنها - وبعد أن يغادر البيت - كانت تحرك
قبضتها فى اتجاهه وهي تقول بغيظ :
- أوه أيها الوغد ، انك تستحق هذه الزوجة
التي لديك ، أنا سعيدة أنها كانت من نصيبك !

أصبح السيد باوندرباى ومديرة منزله أكثر
قربا من بعضهما - حتى أكثر من ذى قبل - وترتب
على هذا أن أصبحت لويزا أكثر قربا من السيد
هارتهاوس .

وفى صباح أحد الأيام وفى الساعة العاشرة
تماما حمل بيتزر رسالة من كوكناون . ان السيدة
جراد جرينه تحتضر ويجب على لويزا أن تذهب الى
ستون لودج فى الحال .

كانت قد ذهبت الى بيت أبيها مرتين فقط منذ
زواجها ، والسيد جراد جرينه يكون عادة فى لندن ،
كما أن مسز جراد جرينه لا تحب الزيارات . فى هذه

الفصل السابع عشر

استطاعت مسز سبارسيت أن تحتل مكان لويزا
فى منزل السيد باوندرباى الصيفى . وان كان ذلك
لم يسبب أى قلق للويزا فقد اعتادت أن تقول
لمسز سبارسيت :

- ان هذا لايهم يامسز سبارسيت ، انك
تستمتعين برعاية السيد باوندرباى !

وفى الحقيقة فقد كانت مسز سبارسيت ترى
سيدها باهتمام بالغ فهي تقدم له وجباته وتنظف له

وازداد صوتها ضعفا وهي تقول :

— عندما تكون سيسي معى ولكنى لم أستطع أن
أتذكر اسمه .. ربما استطاع والدك بل يجب عليه ..
لأجل الله .. أن يعرفه ..

ثم سكت الصوت للأبد .. ولم تتكلم مسز
جراد جریند ثانية .. ماتت فى عصر هذا اليوم قبل
أن يعود زوجها .

ومكثت مسز سبارسيت مع عائلة باوندرباى لعدة
أسابيع ، وأثناء وجودها معهم كانت تتخيل سلما كبيرا
فى نهايته حفرة مظلمة ينتظر فيها السيد هارتهاوس ،
بينما لويزا تهبط باستمرار فى اتجاه .. حفرة
العار ..

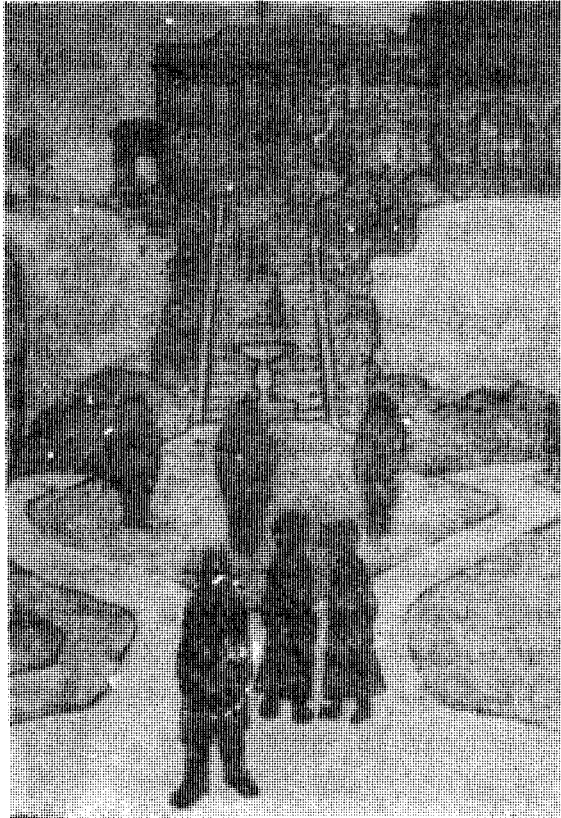
فى احدى الأمسيات الدافئة كانت لويزا والسيد
هارتهاوس يجلسان فى الحديقة ، كانا يتناقشان فى
موضوع ستيفن بلاكبول الذى مازالت الشرطة تبحث
عنه ، وكانت مسز سبارسيت تراقبها من نافذة مخدعها
ولاحظت أن وجه السيد هارتهاوس يكاد يلمس شعر

المرآة أحست لويزا أن المكان مختلف مما جعلها تشعر
ببعض الغيرة فقد كان يملا المكان مزيد من الحب أكثر
مما عرفته فى حياتها كلها .. لقد كانت كلمات
سيسي جوب الحنونة ونظراتها الرقيقة هى التى
غيرت « ستون لودج » .

منذ زواجها .. لم تتكلم لويزا مع سيسي جوب
ولكن مسز جرادجریند ، والأطفال الأصغر من لويزا
وتوم كانوا يحبون سيسي حبا جما ، والآن بلغت جين
جراد جریند عشرة أو اثنى عشر عاما من العمر وكان
لوجهها زاسلوبها فى الحياة جمال ورقة يعادلان ما لوجه
وأسلوب سيسي .

كان صوت مسز جراد جریند ضعيفا ، وكانت
سعيها رسالة للسيد جراد جریند طلبت من لويزا أن
تعطيها له حينما يعود .. وقالت لابنتها فى صوت
أضعفه المرض :

— لقد تعلمت الكثير فى حياتك يا لويزا وكذلك
أخوك .. ولكن هناك شيئا فات على أبك أو نسيه .
وقد كنت دائما أفكر فيه ..



لويزا ، ولم يكن باستطاعة مسز سبارسييت أن تسمع
ماذا يدور في محادثتهما ..

سالت لويزا جيم قائلة :

- ماذا تعتقد فيه ياسيد هارتهوس ؟
- انه يتكلم كثيرا .. كثيرا جدا ربما .
- لقد بدا لي رجلا شريفا ، ولكنني لا أعرف
شيئا عن الرجال .. أو النساء .
- عزيزتي لويزا .

وبدأ هارتهوس يخبرها بأن الرجل كان غاضبا
جدا وأنه وجه اللوم للسيد باوندرباي لما يحدث من
متاعب في كوكتاون ولهذا ربما فكر بالفعل في سرقة
المصرف .. بالإضافة الى أن سرقة المصرف وسيلة
سهلة للحصول على المال . وظلت لويزا صامتة لبعض
الوقت ثم قالت :

- اني أتذكر وجه بلا كبول وطريقته . ولا يمكنني
في الحقيقة أن أوافقك على رأيك . ولكن عندما يتسنى

لى أن أوافقك فانى سأشعر أن عبءاً ما قد انزاح عن
قلبي

- ان توم الصغير .. يوافقنى . هل لنا أن
نتمشى قليلا ؟

وتمشياً داخل الحديقة .. كانت لويزا تتأبط
ذراعه . لم تكن تعرف أنها تهبط الى أسفل .. تهبط
وتهبط وتهبط الى قاع السلم الذى تخيلته مسز
سبارسيت والتمت كانت تراقب وتنتظر أن تسقط
لويزا فى الحفرة

عادت مسز سبارسيت الى شقتها فوق البنك
ولكنها استمرت فى قضاء عطلات نهاية الاسبوع ببيت
السيد باوندرباى الريفى . وبمرور أسبوعين كان على
السيد باوندرباى أن يسافر فى عمل . وقبل أن
يسافر أكد على مسز سبارسيت بالأ تتأخر عن قضاء
عطلة نهاية الاسبوع ببيته الريفى .

فأالت مسز سبارسيت بسعادة :

- أشكرك ياسيدي .. سوف أذهب بكل
سرور .

بالطبع لم تقل شيئاً عن قاع السلم ..

غادر السيد باوندرباى كوكتاون فى صباح
يوم الجمعة وفى عصر نفس ذلك اليوم دعت مسز
سبارسيت توم الابن ليتناول الشاي معها . وعلى هذا
وفى الساعة الرابعة تماما عندما أغلق صيارفة المصرف
خزاناتهم : هرول توم الى أعلى .. الى شقة مسز
سبارسيت .. فاستقبلته مسز سبارسيت مرحبة
وهي تقول :

- لقد فكرت أنك ربما تستمتع بوجبة صغيرة
ياسيد توم .. خبرنى كيف ترى حال السيد
هارتهاوس !؟

فاجاب توم وهو ياكل بنهم :

- أوه انه بخير حال .. على ما أعتقد ، فقد كان
متفنيا عنا الايام القليلة الماضية .

- اننى معجبة به .. هل سيعود بسرعة ؟

- غدا مساء .. سوف آقبله عند المحطة
وسوف نتناول المشاء معا فى المدينة ولن يكون فى
البيت فى نهاية هذا الاسبوع .

فقالت مسز سبارسيت بخبث :

- لسوء الحظ .. يجب على أن أبقى هنا أنا
أيضا هذا الاسبوع .. فهل تكرم وتحمل اعتذارى
للسيدة الرقيقة أختك ؟

- اذا تذكرت يامسز سبارسيت ، ولكن الامر
فى الحقيقة لا يهم . فلويزا لن تفكر فيك الا اذا رأتك .
بهذه الكلمات الرقيقة ! شكر الجرو مسز
سبارسيت على الشاى والطعام ..

وفى مساء السبت ، ارتدت مسز سبارسيت
قبعتها ووضعت شالا على كتفها ، وخرجت فى هدوء .
وفى محطة القطار شدت الشال فوق قبعتها . كان توم
الابن هناك أيضا ولكنه لم يلحظ مسز سبارسيت ،
وجاء قطار .. ، ثم قطار آخر ولكن السيد هارتهوس

لم يصل بعد .. وأخيرا أحس بالتعب من الانتظار ..
فغادر المحطة .

وقالت السيدة سبارسيت لنفسها : « ان
هارتهوس قد دبر الأمر ! لقد أراد أن ينفى الأخ فى
المدينة .. ولهذا .. آه ، لويزا .. انها الآن فى قاع
السلم أو .. فى الحفرة ! لابد أن هارتهوس معها
الآن » .

استقلت مسز سبارسيت القطار التالى الذى
يفادر المحطة وبعد نصف ساعة عبرت حقلا فى اتجاهها
للحديقة . كانت نوافذ البيت مفتوحة . فمشيت
مسز سبارسيت فى هدوء وحذر حول الحديقة تراقب
وتتسمع ولكنها لم تفادر منطقة الحشائش .

أخيرا سمعت أصواتا خافتة .. صوته وصوتها ؟ ..
لقد دبوا خطة لابعاد الأخ عن البيت ! وهما هناك
الآن .. كلاهما ! يجلسان على جذع شجرة ساقطة !
وبهدوء شديد اقتربت مسز سبارسيت ولكن ما هذه
الفضوضاء ؟ حنان .. حنان هارتهوس ! لم يكن

لقد امتطيت جواى مسافة خمسين ميلا من اجلك ..
ولا استطيع ان اتركك الآن .

فكالت لويزا وهي تحاول ان تنهض واقفة :

- بل يجب عليك ..

ولكنه عندما بذراعه وقال لها :

- اننى احبك يا لويزا .. ولا شيئا آخر يهم ؟

كان صوته يخفت أحيانا حتى يصبح همسا ..
وكان يعلو أحيانا .

- لا يمكنك البقاء هنا بدون صديق .. لن اذهب

الا اذا آتيت معى !

اجابته لويزا ولكن صوتها كان خافتا جدا ،
وعندما سمعت مسز سبارسيت كلمة « الليلة » علمت
انهما يدبران للقاء الليلة ، كان هذا كل شيء بعدها
اطلق هارتهاوس المنان لجواده ولكن ليس الى
الاسطبل .

تبعته مسز سبارسيت لويزا الى البيت ، كانت
السماء قد بدأت تمطر ثم ازداد سقوط المطر . فوقفت

متجها للبيت بل كان يركبه متجها اليها ! فاخذت
مسز سبارسيت تتسمع الأصوات .

كان هارتهاوس يقول :

- ولكنك وحدك الآن يا اعز انسانة ماذا يمكننى
ان افعل ؟

فاجبت لويزا :

- ليس هنا ..

فلها هارتهاوس بذراعه وقال لها :

- اين اذن يا حبيبتي .

فكالت مسز سبارسيت فى نفسها : « آه ..

حبيبتي ! انك لا تدري بمن يراقبك ! » .

قالت لويزا :

- ليس هنا .. يجب ان تدعنى وحدى هنا !

- عزيزتى لويزا .. يجب ان نلتقى فى مكان ما .

مسز سبارسيت تحت شجرة تفكر فيما عليها أن
تفعله .

فجأة ظهرت لويزا ثانية .. كانت ترتدى معطفاً
فقالت مسز سبارسيت في نفسها : « انها ستهرب
معه .. أوه يا عزيزتى .. لقد سقطت في الحفرة » .

أسرعت لويزا الى محطة القطار وتبعتهما مسز
سبارسيت خلال الحشائش المبتلة ، كان الظلام مخيباً
والطر يتساقط بقوة وغزارة . توقفت لويزا مرة ..
فتوقفت مسز سبارسيت أيضاً .. ثم تابعت لويزا
المسير ، فحركت مسز سبارسيت قبضتها في الفضاء
وتبعتهما .

وفي المحطة غطت مسز سبارسيت قبعتها بشالها
المبلل وسافرت السيدتان الى كوكتاون في نفس
القطار .. وطوال الرحلة كانت مسز سبارسيت تحدث
نفسها قائلة : « يجب أن أتبعها .. لأعرف أين
سيلتقيان ؟ » .

كانت كوكتاون غارقة في نيبان من الامطار ،

اندفع حوالى خمسين أو ستين من الركاب من المحطة
الى خط الصربات فى الخارج . ولكن لويزا لم تكن
هناك .. « انها مازالت فى القطار .. انها ذاهبة
للمحطة التالية وسوف تقابله هناك » ، خطرت هذه
الأفكار لعقل مسز سبارسيت فجرت عائدة للقطار
وأخذت تصدو ولكنها لم تلحق بالقطار ففضيت
وشعرت بخيبة الأمل .. ولم يكن فى إمكانها أكثر من
أن تنفجر فى البكاء وهى تندب حظها قائلة : « لقد
فقدتها ! » .

كان السيد جراد جريند فى بيته فى نهاية هذا
الاسبوع ، كان ينظر الى العاصفة من خلال النافذة
حينما انفتح باب الحجرة فاستدار بسرعة ليجد ..
لويزا والتي باردته قائلة وهى تخلع قبعتها .

- أبى .. يجب أن أتحدث اليك !

- لويزا ! ماذا حدث ؟ انك مبتلة جدا . هل
مشيت فى هذا الجو العاصف ؟

- أجل !

لم يبد عليها أنها لاحظت ملابسها المبتلة ، فقد
تركت معطفها يسقط على الأرض .. كانت شاحبة
وترتمش ، فأحس أبوها بالخوف عليها . وضعت
يدها الباردة على ذراعه وقالت :

- أبى لقد رببتى ودربتى منذ صغرى ..

- أجل يالويزا .

- انك لم تمنحنى شيئا يجمل لحياتى مذاقا
طيبا . أين الحب الذى يجب أن يملأ قلبى ؟ ان قلبى
عبارة عن شيء فارغ .. هل تذكر آخر مرة تحدثنا
فيها فى هذه الحجره ؟

لم يكن السيد جراد جريند مستعدا على الاطلاق
لسماع هذه الكلمات التى فاجأته بها ابنته فقال بدون
تفكير :

- أجل يالويزا .

- كنت أتمنى ان تساعدنى وقتها . أنا لا ألومك
الآن ، يا أبى ، لا ألومك على أى شيء . فليس فى
امكانك أن تعلم الآخرين أشياء أنت نفسك لاتعرفها .

ولكن آه لو أنك علمتنى الأشياء الصحيحة أو ..
لو أنك لم تعلمنى شيئا .. لكنت حياتى أفضل ولكنت
امراة أكثر سعادة اليوم !

بعد هذه الكلمات ، سقطت رأس السيد
جراد جريند على صدره وقال فى حنان :

- يا طفلتى المسكينة ، لم أكن أعلم أبدا أنك
غير سعيدة .

- أما أنا فكنت دائما أعرف ، لقد تعلمت كل
الأشياء الخاطئة يا أبى .. كان الشيء الوحيد الذى
يريحنى هو .. فكرتى بأن حياة الانسان قصيرة جدا .
- ولكنك مازلت صغيرة يالويزا !

- أجل يا أبى ، فقد خططت ودبرت أمر زواجى
.. اقترحت على زوجى ، وأنا وافقت عليه لعلنى أن
لاشيء يستحق المجادلة . كنت أعرف أنى لا أحبه ..
وكنت أنت أيضا تعرف .. وهو يعرف أنى لا أحبه .
تزوجته لأنى كنت أأمل أن أستطيع مساعدة توم ..
توم الذى قاسمى حياتى التعيسة . كان الشخص

تساءل عما اذا كنت أحبه أم لا ؟ حسنا ، انى لا أعرف
ولكن يمكننى أن أقول لك ببساطة أنى ربما أحبه ..
سحبت ذراعها من بين كتفى أبيها ثم ..
وبصعوبة بالغة أنهت ما كانت تود أن تقوله :

— هذا المساء أخبرنى أنه يحبنى ، وهو يتوقع
أن أذهب لمقابلة .. وانى لا أعتقد أنى آسفة أو خجلى
.. أنا أعرف شيئا واحدا .. هو أن تعليمك لى لن
ينقذنى يا أبى . يجب أن تحاول انقاذى بطريقة
أخرى ..

وكادت تسقط لولا أن أمسكها أبوها فصرخت
صرخة مرعبة وقالت :

— دعنى أسقط !

فأرقدتها أبوها على الأرض عند قدميه .. حيث
شاهد كل كبريائه وكل حقائق أفكاره تتمرغ على
الأرض !

الوحيد الذى أحبه وأشعر بالشفقة عليه .. كان
السبب وكان المهرب . ان هذا لايهم الآن ولكنه قد
يساعدك لتشعر ببعض الشفقة على توم يا أبى !

فاحتضن السيد جراد جريئة ابنته وقال لها :

— ماذا يمكننى أن أفعل الآن يا ابنتى ..
أطلبى منى أى شىء تتمنيه ..

— اننى أحتاج الى مساعدتك يا أبى . لقد اتخذت
صديقا .. انه يختلف عن أى رجل آخر عرفته فى
حياتى . انه طيب القلب وله خبرة بالحياة . وهو
لا يسعى لأن يصبح شخصا هاما . كما أنه يشاركنى
فى بعض أفكارى ويظهر اهتماما بى يا أبى ..

فارتعش السيد جراد جرنيده وهو يقول فى
دهشة :

— اهتماما بك يا لويزا !؟

— انه يفهمنى يا أبى .. يمكنه أن يقرأ أفكارى ،
وقد استطاع أن يفهم بسرعة كل الحقائق المتعلقة
بزواجى .. اننى لم أرتكب أى خطأ يا أبى ، ربما كنت

وعطوفة ، وفي أثناء حديث الأختين دخل السيد
جراد جريرند فانسحبت جين في هدوء . . ثم . . خيم
الصمت والحزن على المكان . كان السيد جراد جريرند
يلوم نفسه على ما حدث للويزا من متاعب . وقال أنه
كان دائما يعتقد ان أفكاره عن التربية أفكار صحيحة .
وبعد لحظات الصمت قال للويزا :

- ابنتى العزيزة ، هل يمكن لانسان أن يصبح
حكيمًا بطريقتين مختلفتين ؟ بعض الناس يقولون
هذا . . انهم يقولون أن بمقدور القلب أن يكون
حكيمًا . . كالعقل تماما . لم أصدق هذا القول أبدا
ولكن . . ربما كنت مخطئا .

كان شعر لويزا يفترش الوسادة فمد أبوها يدا
حانية ومسح على شعرها واستأنف حديثه :

- اننى غالبا ما أكون متغيبا هذه الأيام ، وان
لدينا مدرسا هنا لتعليم الأطفال ، انهم يتلقون نفس
التعليم الذى تلقته تماما . ولكن بالطبع كانت سيسى
معهم لوقت طويل . عزيزتى . . هل تعتقدين أن أختك

الفصل الثامن عشر

استيقظت لويزا فى الصباح التالى فوجدت
نفسها فى حجرتها القديمة فى « ستون لودج » . .
كانت سيسى والخادمة قد حملتاها الى سريرها ثم
مكثت سيسى بالقرب منها جزءا من الليل .

وفى الصباح . . دخلت جين - أخت لويزا
الصغيرة - وأخذت تتحدث مع أختها فسألتها قائلة :
- هل أعجبتك حجرتك ؟ ان سيسى حرصت على
أن تحفظها نظيفة ومرتبة منذ أن غادرت البيت .

كانت جين - حسب اعتقاد لويزا - بنتا رقيقة

الصغيرة حين قدر لها حظ من السعادة أكبر منك ؟
- يا أبى .. ان وجهها يعطيك الاجابة على هذا
السؤال ، وهى ان قدر لها أن تتجنب الطريق الذى
سرت فيه ، فانه يجب عليها أن تشكر ربها .
- بالرغم أنك يا ابنتى لم توجهى الى أى لوم الا
أن من الواجب أن ألوم نفسى ..
ثم أحنى رأسه وبدأ يتكلم فى صوت شديد
الخفوت والهدوء :

- يبدو أن الحب قد غير أشياء كثيرة فى هذا
البيت . ان هناك أشياء لا يستطيع العقل أن يفعلها
بينما يقوم بها القلب فى هدوء . أليس هذا هو
ما تعتقدين ؟

أغلقت لويزا عينيها .. ولما لم تجب .. انسحب
أبوها من الحجرة بهدوء . وتذكرت لويزا يوم أخبروا
والدها بأمر زواجها . كانت سيسى تجلس بجوار
سرير السيدة جرادجريند . وعندما سمعت ، رمقت
لويزا عينيها فجأة بنظرة .. ولم تنسى لويزا أبدا هذه

النظرة .. نظرة اشفاق .. لم تنسها لويزا ولم
تسامحها عليها والآن .. يبدو الأمر وكأن (ابنة المهرج
قد زرعت الحب فى البيت و ..)

أحست لويزا بيد دافنة تلمس رقبتها . لم تفتح
عينيها ولكنها أحست بالدموع فيهما . ثم لامس خد
ندى خدها فحاولت أن تستيقظ .. فوجدت سيسى
تقول لها فى هدوء وعطف :

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك . هل يمكننى أن
أبقى هنا ؟

- سوف تفتقدك أختى ، وأنت كل شئ بالنسبة
لها

- وكم أتمنى أن أصبح شيئا بالنسبة لك .
فنهضت لويزا ووقفت بجوار سريرها وقالت
لسيسى :

- هل أرسلك أبى الى هنا ؟
- لا .. فقط قال أن بإمكانى أن أراك . ولكن ..
ربما لا ترغبين فى بقائى معك .

فجئت لويزا على ركبتيها عند قدمي الفتاة
وامسكت بذيل ثوبها واخلت تقول في استعطاف :

- أوه ، سامحيني يا سيسى ! ارحميني
وساعديني ! دعيني أوسد رأسي على قلبك المملوء بالحب !

فقالت سيسى وهي تبكي وتضم رأس لويزا

لصدرها :

- أجل .. أجل يا حبيبتي ضعي رأسك هنا !

كان السيد جيمس هارتهوس ينتظر - في فندق
كوكناون - على أحر من الجمر ، كان يتوقع رسالة من
لويزا ولكن لم تأت أية رسالة . اعتذر لتوم الابن عندما
قابله في يوم الأحد . كان يبدو على توم القلق كان
يشكو من أن بيتزر يتعقبه في كل مكان . كان السيد
باوندرباي لا يزال متغيبا وكانت مسز سبارسيت قد
غادرت المدينة سرا في عربة . ولا أحد يعرف الى أين
ذهبت .

في مساء الأحد أصبح هارتهوس قلقا هو الآخر .
كان خائفا أن يكون شخص ما قد اكتشف حقيقة ما بينه

- وهل تحسبن بانى دائما أكرهك الى هذا الحد ؟

- أتمنى ألا يكون ، فانا دائما أحبك كثيرا .
حقا ان طريقتك معى تغيرت قبل أن تغادري البيت .
ولكننى لم أدهش حقيقة ، فانت ذكية جدا بينما انا
فى منتهى الغباء ..

وتورد وجه سيسى واكملت :

- ولكننى لم أتالم من هذا .

بل تألمت سيسى ولويزا تعلم هذا فأخذت يد الفتاة
بين يديها وقالت :

- اننى مغرورة وقاسية .. غاضبة دائما وظالمة
لكل الناس حتى لنفسى .. ألا يجعلك هذا تكرهيننى ؟

- لا !

- اننى انسانية تصسة لأننى فقط بدأت أفكر فى
أبسط الحقائق وأحتاج لمن يعلمنى الاحترام والشرف
والحب ، أفلا يجعلك هذا تكرهيننى ؟

- لا !

وبين لويزا ، ربما كان حتى باوندرباى يعرف السر .
كان جيم يتساءل هل سيكون عليه أن يصارع زوج
لويزا ! .. لم يكن جيم - فى الحقيقة - يجيد استعمال
قبضته ! .. حاول جيم أن يتماسك ويحتفظ بهدو
« فلم تقله أية مصاعب أخرى » .. هكذا كان يقول
فى نفسه « فلماذا اذن تفسد هذه المشكلة الصغيرة عليه
عشاءه » . وبالفعل .. تناول عشاء جيدا فى حوالى
السادسة ثم بدأ يقرأ كتابا ثم .. وبعد نصف ساعة
حضر اليه عامل الفنلق وقال :

- سيدة شابة تأمل فى رؤيتك يا سيدى ؟
- رؤيتى !؟

ثم نهض بسرعة واقفا وقال :
- دعها تدخل يا رجل !

فدخلت الغرفة امرأة شابة لم يرها هارتهوس
من قبل . كانت بسيطة فى ملابسها هادئة ورائعة
الجمال . ثم قالت :
- هل أنت السيد هارتهوس ؟

- أجل ، أنا
ثم قال فى نفسه : « بالتأكيد هذه أجمل عيون
رايتها فى حياتى » .

- ان رسالتى سرية يا سيدى . هل يمكننى أن
أعتمد عليك فى حفظ السر ؟
- يمكنك .
- ربما قد خمنت من أكون ؟

فقال هارتهوس فى نفسه : « لها صوت جميل
أيضا ! » ثم قال لها :

- اننى فى قلق منذ البارحة بشأن سيدة فاضلة
فهل أتيت من عندها ؟

- نعم !

- أين هى ؟

- فى منزل أبيها فقد أسرعتم الى هناك تحت
المطر والرياح ليلة الأمس . اننى أعيش هناك أنا أيضا

فابتسم السيد هارتهوس لها ولكن ابتسامته
ضاعت . فقد كان عقله يحلق فى مكان بعيد عنه
ثم قال :

- حسنا ، يبدو أنك واثقة من الأمر تمام الثقة .
ولكن السيدة الفاضلة لم ترسلك وهذا أيضا صحيح .
اليس كذلك ؟

- ان حبى لها هو الذى جاء بى الى هنا . وحبها
لى يساعدنى فى توجيه خطواتى . فانا أعرف قلبها
وعقلها . . . وقد أخبرتنى ببعض الأمور عن زواجها .
أوه ، سيد هارتهوس لقد أخبرتك أنت أيضا . . . لأنها
وثقت بك .

وأحس هارتهوس بأن نوعا من الألم قد مس
المكان الذى من المفروض أنه به قلبه وقال بلهجة ذات
مغزى :

- ان من يتقون بى . . . ربما كانوا غير حكماء .
ان والد هذه السيدة « آلة » وأخاها « جرو » وزوجها
« دب » ، واذا كنت قد تسببت لها فى أى أذى فيمكننى

وقد قضيت الليلة بجانبها . وتستطيع أن تتأكد
يا سيدى أنك لن تراها ثانية .

فاخذ السيد هارتهوس نفسا عميقا وحاول أن
يفكر بذهن صاف . هذه الفتاة صغيرة جدا وهى تقول
الحقيقة كما تفهمها . وهو متأكد أنها لا تكذب ، فقال :

- اننى حقيقة فى ذهول . . هل أعطتك السيدة
هذه الرسالة اليايسة لى ؟

- لا . . انها لم تفعل !

- اذن ، فربما لن تكون هذه هى رغبتها ؟ وربما
سأراها ثانية ؟

- ليس هناك أدنى أمل . يجب أن تصدق هذا
يا سيدى !

- يجب أن أصدق ؟! ولكن ماذا ان لم أكن أستطيع
أو لم أكن أريد أن أصدق ؟

- لن يغير هذا من أن هذه هى الحقيقة . ليس
هناك أى أمل مطلقا !

ان أقول - فقط - اننى لم أكن أرغب مطلقا فى ايدائها .
والآن أيتها السيدة الشابة ، أنت تلوميننى . انك
تعنين بكلامك أنى قد فعلت شيئا خاطئا وانى أقبل
هذا منك . . . وان كنت لا أقبله من أى انسان آخر .
لا أعتقد أن أسلوبى فى الحياة سيتغير ولهذا يجب على
أن أتعود الوضع الجديد . . . فربما لن أرى السيدة
ثانية .

فردت عليه سيسى برقة ولكن بحزم :

- سيد هارتهوس ، يجب عليك أن تصلح ما
أفسدت . . . يجب أن تغادر هذه المدينة فى الحال ولا
تعود إليها ثانية . ان هذا ليس تضحية كبيرة عليك . .
وهو لن يكفى ولكنه - على أى حال - شئ أفضل من
شئ . . . كما أنه ضرورى جدا . وسيمقى سرا بيننا
يا سيد هارتهوس . غادر كوكتاون الليلة ولا ترجع
أبدا !

- ولكن . . . ولكننى هنا فى مهمة شعبية ، أنا

أعرف أن هذا غباء ولكننى سأرشح نفسى للبرلمان وهذا
واقع !

- يجب أن ترحل الليلة يا سيد هارتهوس .

- فكرى فى العار ! . . .

ثم صمت برهة وعاد يقول :

- اذا رحلت . . . فهل سيبقى السبب سرا ؟

- سوف أثق بك يا سيدى ، وسوف تثق بي . . .

أخذ هارتهوس يتمشى نى الغرفة لعدة دقائق
مستغرقا فى التفكير ثم عاد ثانية لسيسى وقال وهو
يضحك :

- ان ما قدر له أن يكون حتما سيكون . وهذا

الأمر سيكون على ما أعتقد . لقد وجهت الى ضربة موجعة

يا سيدتى الشابة ، فهل لى أن أعرف اسم عدوى !؟

- اسمى يا سيدى ؟

- أجل ، أنه الاسم الوحيد الذى أود معرفته
الليلة .

الفصل التاسع عشر

عرفت مسز سيارسييت أن السيد باوندرباى فى لندن ، فسافرت اليه فى صباح الأحد وقابلته فى فندقه . قالت أن زوجته قد هربت بصحبة السيد هارتهاموس . وعاد المصرفى ومديرة منزله الى كوكتاون فى مساء هذا اليوم . واتجهها مباشرة الى «ستون لودج» واندفعا الى غرفة مكتب السيد جرادجريند .

وبادر باوندرباى توم جرادجريند قائلا :

— والآن يا توم جرادجريند . . . اسمع فان لدى مسز سيارسييت ما تقوله لك عن إبتك الذكية .

— سيسى جوب !

— هل أنت قريبة السيدة ؟

— لا . انما أنا ابنة مهرج السيرك . وقد تركنى أبى فأشفق على السيد جرادجريند . وأنا أعيش فى بيته منذ ذلك الوقت .

ثم غادرت الغرفة . . .

فالتقى السيد هارتهاموس بجسسه فوق المقعد وهو يقول لنفسه : « هذا يكمل حلقة العار . . . ابنة مهرج سيرك وتلف جيمس هارتهاموس حول اصبعها الصغير ! »

ثم جلس وكتب رسالة صغيرة لأخيه قال فيها :

« اننى مللت الحياة فى كوكتاون وقد قررت أن أسافر الى مصر . سأكتب لك ثانية من القاهرة . جيم » .

ولم تمض الساعة الا وكان السيد هارتهاموس فى القطار المتجه الى لندن . . .

فأصاب الذهول السيد جراد جريرند وقال مخاطباً
باوندرباى :

- لقد كتبت لك بالأمس يا باوندرباى ! أنت لم
تتسلم رسالتى بالطبع ! ..

فصرخ باوندرباى :

- ان هذا ليس وقت الرسائل يا سيدى ! قولى
له يا سيدتى .. قولى له ما أخبرتنى به !

كان الاعياء قد أصاب مسز سبارسييت من جراء
الحوض فى العاصفة فلم تستطع الا أن تخرج بعض
الأصوات الواهنة غير المفهومة مما أثار غضب السيد
باوندرباى فصرخ :

- اسمع يا توم جراد جريرند لقد استمعت مسز
سبارسييت لمحادثة بين ابنتك وصديقك جيمس
هارتهاوس .. لقد سمعت أن ..

٢٤٨

فقاطعه جراد جريرند :

- لست بحاجة لترديد ما سمعته ، فانا أعرفه !

فصرخ باوندرباى فى دهشة

- تعرفه ! وهل تعرف أين ابنتك الآن ؟

- بالتأكيد ! انها هنا ..

- هنا ؟!

فقال جراد جريرند بنفاد صبر :

- باوندرباى .. أرجوك لا تصرخ ثانية . لقد
هرعت لويزا الى هنا بمجرد أن استطاعت التخلص من
هارتهاوس . ثم جاءت الى البيت . رغم العاصفة
الشديدة ، وهى الآن مريضة وملازمة للفراش منذ ليلة
الأمس

فاستدار باوندرباى غاضباً الى مسز سبارسييت

وقال لها :

- والآن .. أيتها السيدة .. فانا نكون سعداء
ماع اعتذارك . ان كل قصتك كانت محض هراء !

٢٤٩

- بالتأكيد ! اننى لا أؤمن بأى طريقة فى التربية
.. خلاف اللكمات يا سيدى . لكلمات قوية وعصا
قاسية !

- ان هذا مستحيل فى التعامل مع امرأة شابة
يا باوندرباى !!

فتساءل باوندرباى بغياء :

- ما هو هذا المستحيل ؟

- أوه ان هذا لا يهم الآن ، يجب علينا أن نحاول
اصلاح الضرر الواقع . وأنا أحتاج مساعدتك فأنا جد
تعس لما أصاب لويزا ..

- لن أملك بشيء يا جراد جريرند ..

- كل ما أرجوه هو .. أن تترك لويزا وحدها
لفترة . الرعاية والحب سوف يعطيان أفضل النتائج ..
لقد كانت دائما أفضل أطفالى .

فاحمر وجه باوندرباى وقال :

- هل تريد أن تستبقيها هنا !؟

فقال مسز سبارسيت باكية :

- سيدى .. سيدى ، اننى مريضة ولا أستطيع
أن أقول شيئا الآن .

- حسنا يا سيدتى .. ان العربية ما زالت
بالباب ، عودى الى شقتك ، وانعمى بحمام ساخن !
.. ثم اذهبى الى فراشك !

قال باوندرباى هذا ثم أخذها من يدها الى الخارج
حيث تقف العربية ، وبعد دقيقة عاد بمفرده وقال
جراد جريرند فى خشمونة :

- والآن - جراد جريرند - أرجوك اشرح لى كل
شيء .

- أخشى .. أننا لم نستطع أبدا أن نفهم لويزا .
- تكلم عن نفسك فقط يا جراد جريرند ، فأنا كنت
دائما أفهمها .

- اذن لنقل .. انى لم أفهمها ، وقد ارتكبت
أخطاء جسيمة فى تربيتها .

- يمكننا أن نعتبرها في زيارة لنا . ان سيسي
أعنى سيسيليا جوب - تفهم لويزا ، ولويزا تشق فيها .

- اسمح يا جراد جریند ، اننى جوزيه باوندرباى
.. وجيه كوكتاون ، وكون ابنتك زوجتى .. يعتبر
شرفا لا تستحقه ! .. ما الذى ترجوه من هذه الزيارة؟

- لقد أخبرتك . ان لويزا غير سعيدة ، وأرجو
أن تعمل على اسعادها .. هل هذا كثير !؟ انك تكبرها
سنا بكثير .. وأنا قد قبلت ..

فقاطعه باوندرباى غاضبا :

- أنا أعرف هذا .. وتلك مشكلتى وحدى .
- لقد ارتكبنا - كلنا - أخطاء يا باوندرباى .
ويجب علينا أن نفعل شيئا لتصحيحها . وسيكون
عظما منك لو أنك قبلت خطئى .

- أنا لا أوافق يا جراد جریند ، ولكنى لسن
أتشاجر معك . ولكن .. يجب على صديقك هارتهاوس
أن يغادر كوكتاون قبل أن أصادفه فى طريقى .. بالطبع

يجب على ابنتك أن تعود الى بيتها .. بيتى . سوف
أنتظرها غدا ظهرا . واذا لم تأت .. يمكنها - اذن -
أن تبقى بعيدة للأبد .

- أرجوك يا باوندرباى .. بل انى أتوسل اليك
أن تفكر ثانية .

- لا يا سيدى ، ان جوزيه باوندرباى لا يتنازل
عن رأيه . ان هذا هو كل ما أود أن أقوله لك . تصبح
على خير .

وعاد السيد باوندرباى الى بيته فى مدينة
كوكتاون .. ولم تأت لويزا فى ظهر اليوم التالى .
وفى الظهر تماما أعطى باوندرباى أمرا لخدمه بأن يجمعوا
ملابس لويزا فى صناديق وأرسلها الى ستون لودج .
وبعد عدة أيام .. عرض السيد باوندرباى بيته الريفى
للبيع . وقد أعطاه هذا التغيير الحديد فى حياته مزيدا
من الوقت للعمل .

كان قد عقد عزمه على العشور على من سرقوا مصرفه
ولم يكن مسموحا لرجال الشرطة بالراحة من الجهد

المتصل حتى يقبضوا على اللصوص .. لم تكن هناك
أنباء عن ستيفن بلاكبول ، كما أن لغز المرأة العجوز
بقي لغزا . وأعطى السيد باوندرباى وعدا بأن يمنح
عشرين جنيهًا لمن يدلّه على مكان بلاكبول .

كانت راشيل فى شدة القلق . أما سلاكبرىدج -
الرئيس المحترف لتقاية العمال - فكان سعيدا فاذا
ثبت أن بلاكبول لص .. فان سلاكبرىدج يصبح على
حق فى كل ما قال !

عندما سمعت راشيل بأمر الجائزة .. ذهبت الى
بيت السيد باوندرباى . ثم .. وفى احدى الأمسيات
وصل ثلاثة زوار الى ستون لودج .. السيد باوندرباى
راشيل وتوم الابن أخذتهم سيسى الى حجرة السيد
جراد جريرند ، حيث كانت لويزا تتحدث مع والدها .
ووقف توم الابن فى ركن مظلم بجوار باب
الحجرة . وبلأ السيد باوندرباى الكلام قائلا :

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك .. هذه المرأة ..
(وأشار الى راشيل) وقد تكلمت معى . وتوم

جرادجريرند - ابنك - رفض أن يعلق بشيء ! ربما كان
باستطاعة مسز باوندرباى أن تخبرنى بالحقيقه .

وقفت راشيل امام لويزا وقالت :

- لقد رأيتنى مرة من قبل يا سيدتى الشابة ..
فسعل توم الابن . فاعادت راشيل كلامها :
- لقد تقابلنا من قبل اليس كذلك ؟
فسعل توم ثانية ..

فاجابت لويزا :

- نعم التقينا .

- هل يمكن أن توضحى سبب لقائنا . ومن كان
حاضرا فى هذا اللقاء ؟

- لقد التقينا فى غرفة ستيفن بلاكبول .. كان
هذا بعد أن غادر بيت السيد باوندرباى . وقد رأيتك
هناك مع بلاكبول .. كما كانت هناك امرأة عجوز -
أيضا - كما أن أخى توم كان بصحبتى .

وهنا تساءل باوندرباى قائلا وموجها الكلام لتوم

: الابن :

- آوه .. نعم ، يا سيدتى . يبدو أنه يجب على
أن أصدق بعض الهراء الذى أخبرتنى به .

فاخذت راشيل تبكى وهي تقول للويزا :

- ان ستيفن بلاكبول رجل شريف . ولكن ..
كل من فى المدينة يظنون أنه سرق المصرف . ان هذا
غير صحيح ! أنا أعرف أنه غير صحيح .

فقال لويزا :

- اننى فى غاية الأسى

فقال راشيل :

- انه سيعود ثانية .. غدا أو بعد غد . كان عليه
أن ينتحل اسما آخر ليجد عملا . ولكنى كتبت اليه
وسيعود وسوف يثبت أنه برى .

فضحك باوندرباى وقال :

- خبرينا باسمه الجديد ! خبرينا أين هو !؟

فاستمزت راشيل فى البكاء **وقالت :**

- ان هذا ليس عدلا ، ان ستيفن لم يرتكب ذنبا !

- لماذا لم تستطع ان تقول هذا يا توم !؟

فقال توم :

- لقد وعدت أختى بالأأ فعل .

استأنفت راشيل حديثها قائلة :

- سيدتى الشابة الطيبة ، هل يمكنك أن تقولى

لماذا جئت لغرفة ستيفن بلاكبول ؟

- كنت حزينة لأجله ، وأردت أن أقدم له بعض

المساعدة .

فقال باوندرباى فى غضب مكتوم :

- شكرا .. سيدتى ! أطرد الرجل .. فتذهبين

أنت لتقديم المساعدة له !

وتساءلت راشيل :

- كم عرضت عليه يا سيدتى .. ؟

- أربعة جنيهات .. ولكنه أخذ جنيهين فقط .

فنظرت راشيل فى كبرياء الى السيد باوندرباى ،

فصاح باوندرباى :

إذا أخبرتك ببيكانه . اذن لنذهب أحدهم وأحضره .
ألا تفهم ؟! ليس هناك داع لاصطياده . . سوف يأتي
بنفسه . .

بعد دقائق معدودة نادى السيد جراد جرينده وتوم
الابن (ستون لودج) . وطوال هذا الحوار السابق ،
لم يتفوه السيد جراد جرينده أو سييسى بكلمة واحدة .
والآن توجهت سييسى بالجنديت الى راشيل قائلة :

- هل يعلم ستيفن بسبب ظن الناس به السوء ؟
- لقد أخبرته أن هؤلاء الناس راوه يراقب
المصرف . أنا لا أعرف لماذا ذهب الى هناك ، فلم يكن
هذا المكان قريبا من بيته .

وعرضت سييسى أن تذهب الى بيت راشيل في
اليوم التالي لترى ما اذا كان ستيفن قد عاد ، على أن
تحمل الأخبار الى ستون لودج . ووافق الجميع على
هذه الخطة . ثم عادت راشيل الى بيتها .

وعندما رحلت راشيل سأل جراد جرينده ابنته
بنبرة حنون قائلا :

- لويزا . . عزيزتي . . هل تعتقدين أن بلاكيول
قد سرق المصرف فعلا ؟

- لا يا ابني أنا واثقة من أنه رجل شريف .

- وهكذا تعتقد المرأة أيضا . ولكن هل يعرف
اللص الحقيقي ماذا يقول الناس ؟ أين هو اللص
الحقيقي ؟ من يكون ؟

لاحظت لويزا تلك النظرة التي أطلقت من عيني
سييسى - كانت تعرفها من قبل - نظرة حب ورتاء .
ثم جلست لويزا بجوار مقعد أبيها .

ومر اليوم ، لتسأل ، والذي يليه ولم يحضر
بلاكيول . وفي اليوم الرابع ذهبت راشيل الى بيت
باوندرباى ثانية . وبالرغم أنها ما زالت تشق ثقة تامة
في ستيفن فقد أعطت اسمه الجديد وعنوانه للسيد
باوندرباى . كان ستيفن يعيش في مدينة تبعد عن
كوكتاون ستين ميلا .

وتم ارسال الرجال ليحضروا ستيفن بلاكيول .
بينما بقي توم (الابن) ملاصقا لباوندرباى . كان في

غاية الاثارة . . يكاد أن يكون مريضا . لم يكن يستطيع الكف عن قضم أطافره . وعاد الرجال بدون ستيفن ، وقيل أن بلاكيول لا بد قد تسلم رسالة راشيل وفر هاربا في الحال . ولا أحد يعرف الى أين ذهب . .

ومر أسبوع ولم يظهر ستيفن ، فبدأ على توم (الابن) أنه قد وجد قدرا جديدا من الشجاعة . كان يقول للناس « بالطبع بلاكيول هو اللص ، اذا لم يكن هو اللص فلماذا اذن لم يعد !؟ » .

ولكن أين بلاكيول ؟ ولماذا لم يعد !؟

أخذت هذه الأسئلة تطن في أذن توم (الابن) طوال الليل !

الفصل العشرون

لم يعد ستيفن بلاكيول . . ومازالت الشرطة تبحث عنه . كانت سيسى تذهب لبيت راشيل كل مساء تقريبا ، ولكن لم تكن ثمة أخبار جديدة . أصبحت راشيل سعيدة لأنها أخيرا عثرت على صديقة تشق بها ويستيفن . وقد حملت سيسى الحب والسلوى معها وسرعان ما صارت المرأتان صديقتين حميمتين . وبعد هذه المقابلات ، كانت راشيل تمشي مع سيسى نصف طريق عودتها للبيت في كل ليلة وفي إحدى المرات شاهدتها مسز سبارسيت وهما تمشيان معا في الشارع .

فى اليوم التالى - أثناء وقت الغداء - زارت مسز سبارسيت راشيل فى بيتها وسألتها بعض الأسئلة التى حاولت راشيل أن تجيب عليها . ثم فى صباح اليوم التالى - الجمعة - غادرت مسز سبارسيت كوكتاون بالقطار فى ساعة مبكرة .

وفى مساء نفس اليوم ذهبت سيسى الى بيت راشيل ، وكالعادة . . . لم تكن هناك أية أخبار عن ستيفن . ولكن الفتاتين تجاذبتا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم تواعدتا على اللقاء صباح الأحد . فقد فكرت سيسى أن راشيل ربما تحتاج لنزهة فى الحلاء ، فالهواء الطلق سيكون مفيدا لها . وفى الساعة غادرت سيسى وبصحبتها راشيل بيت راشيل وسارتا فى اتجاه ستون لودج . . .

لا بد أن القطار قد وصل الآن . . . لأن هناك عربات كثيرة تجرى فى الشارع تحمل القادمين من أو الداهيين الى المحطة وفى سيرهما مرتا - راشيل وسيسى - ببيت السيد باوندرباى حيث توقفت عربة

أمام الباب ونزلت منها مسز سبارسيت التى ما ان رأت الفتاتين حتى صاحت :

- هذه فرصة عظيمة ! يجب أن تريا هذا !

ثم صرخت أمره :

- انزلى . . . انزلى والا ألقينا بك خارج العربة !

ونزلت من العربة سيدة عجوز أمسكت مسز

سبارسيت بتلابيبها وقالت :

- لا تمسوها . . . أنا التى أمسكت بها ، أدخل

يا سيدتى . . . الى البيت والا . . . والا دفعناك للداخل

بالقوة !

ودخلت مسز سبارسيت والسيدة العجوز وأناس

آخرون كثيرون الى بيت السيد باوندرباى لقد تعرفت

راشيل على السيدة ! . . . انها « مسز بيجلر » ! وتذكرت

راشيل أسئلة مسز سبارسيت .

قالت مسز بيجلر بعض الكلمات بصوت خافت ،

وردت عليها مسز سبارسيت قائلة :

- لا ! لن أدعك تذهبين !

ثم نادى بأعلى صوتها :

- يا سيد باوندرباى ! .. يا سيد باوندرباى !

وما أن دخل السيد باوندرباى الى القاعة حتى أصابه الذهول .. هو والسيد جراد جریند وتوم الابن اللذين كانا بصحبته .

وبعد لحظات قال السيد باوندرباى :

- مسز سبارسيت يا سيدتى .. ماذا يحدث

هنا !؟

فاجابت مسز سبارسيت بتفاخر :

- سيدى لقد وجدت الشخص الذى تبحث عنه ..

صديقة بلاكبول ، لم تكن تريد المجيء .. لكن ...

ثم دفعت مسز سبارسيت مسز بيجلر للأمام ،

فاحمر وجهه باوندرباى ثم تحول الى اللون الأزرق

ثم صاح :

- مسز سبارسيت ! ماذا يعنى هذا !؟

- سيدى .. انها المرأة المجوز !

- ان هذا الأمر يعينى وحدى .. فلماذا تدسين

أنفك فيما يعنى عائلتى فقط !؟

فارتمت مسز سبارسيت على المقعد بعنف وأخذت

تفرك يديها ، بينما كانت مسز بيجلر ترتعش وقالت

وهى تبكى :

- عزيزى جوزيه .. ولدى العزيز ! لم تكن

غلطتى ، وقد أوضحت للسيدة عدة مرات أنك لن تكون

راضيا عن هذا ولكنها أجبرتني على المجيء الى هنا ..

فصاح باوندرباى :

- ولماذا تركتها تاتى بك الى هنا ؟ لماذا لم تقيديها

أو تحطمي أسنانها ؟

- يا ولدى الحبيب .. كانت تنوى استبعاد

الشرطة ولم أكن أريد هذا يا جوزيه ، لقد بررت بوعدى

لك ، وعشت فى هدوء واصبحت أفتخر بك من بعيد ..

كنت أحضر لكوكتاون مرة أو مرتين فى العام .. لكنى

لم أخبر أحدا بأنى أمك .. !!

فردت عليه مسز بيجلن قائلة :

- لا يا سيدي لم يفعل . لم تكن أغنياء . .
أعرف . . فقد مات أبوه . . زوجي عندما كان جوزيه
في الثامنة من عمره وقد عملت وكافحت حتى يتسنى
لابني أن يلتحق بالمدرسة . . كنت أعاني ولكني كنت
مستمتعة بالمعانة . . لأنني كنت أحبه . ثم . . وجدت
عملا له وقد أخذ يعمل هو الآخر بجهد واجتهاد . والآن
ها هو قد أصبح رجلا غنيا من الوجهاء واني لفخورة
به . . .

واستأنفت مسز بيجلر الحديث قائلة :

انه لم ينسني أبدا - يا سيدي - كان يدفع لي
ثلاثين جنيها في العام . . تكفيني وتزيد عن حاجتي
ومازال لدى (دكان) صغير في القرية وقد وعدته أن
أبقى هناك . فقد أراد جوزيه ألا أتدخل في حياته وقد
حفظت عهدي معه لدرجة أنني لم أتحدث اليه طوال
عشرين عاما ، وما كنت لأحضر الى هنا لو لم تحضرني

كان كل من بالقاعة ينصتون لكل كلمة ، بينما
كان باوندرباي يتحرك من ركن الى ركن في غضب
عنيف ومسر سبارسييت غارقة في البكاء . .

ثم قال جراد جریند موجها الكلام لمسز بيجلر :

- ان ما تقولينه هراء يا سيدي . فوالدة السيد
باوندرباي كانت قد ألفت به في الشارع وتركته منذ
أن كان طفلا صغيرا . . كانت في منتهى القسوة معه
. . وقد استطاع هو أن يبنى نفسه بنفسه !

- أنا كنت أما قاسية ؟! أنا ألقيت بابني في
الشارع ؟! . . سامحك الله يا سيدي . . ان لك خيالا
شريرا !

لم يكن السيد جراد جریند يتخيل أى شيء . .
لهذا دهش . . هل كان باوندرباي يكذب كل هذا الوقت
على كل الناس ؟!

ثم قال جراد جریند بعد برهة :

- حسنا ، ألم يعتنى ابنك بنفسه منذ وقت
مبكر جدا في حياته ؟

هذه السيدة ، ولهذا .. أنت على خطأ يا سيدى ! فانا
كنت دائما أما طيبة لابنى وهو سيخبرك بهذا بنفسه !
صفق كل من بالقاعة وحيوا مسز بيجلر على هذه
الخطبة الطويلة . لم يقل السيد جراد جريند شيئا بينما
كان وجه باوندرباى محمرا جدا .. كان غاضبا لدرجة
بدا معها أنه على وشك الانفجار ثم حرك ذراعه فى الهواء
وهو يصيح :

— اذا كنتم قد استمتعتم جميعا الى ما يكفى من
أسرارى ، فربما .. تتكلمون بالخروج من بيتى . فلست
أنوى ايضاح أو تفسير أى شىء .. كذلك توم جراد
جريند سيصاب بخيبة أمل . ولكن يمكن أن أقول لكم
شيئا واحدا .. ان أمى لم تساعد أى انسان على سرقة
مصرفى .. والآن .. أسعد الله مساءكم جميعا !!

قال باوندرباى كلماته الأخيرة وهو يفتح الباب
ليخرج الجميع ..

وما كادت تمر الساعة الا وكان كل من فى
كوكتاون قد علم بالحقيقة .. وهى أن باوندرباى كذاب

لأن له أما رقيقة حنون وهو ليس بالرجل « الذى
صنع نفسه بنفسه » انه ليس الا وجهنا سمينا ..
أحمر .. غاضبا و .. كذابا ! حتى مسز سبارسيت
بدت وكأنها أكثر أمانة من باوندرباى أغنىاء
كوكتاون .

لم تعد مسز بيجلر الآن سرا على أى انسان وهذا
يعنى أن فرصة ستيفن بلاكبول أصبحت أفضل ولكن
لويزا وسبسى .. وراشيل أيضا .. كن يعانين من
مخاوف رهيبية . فنفرض أن ستيفن بلاكبول استطاع
أن يثبت براءته .. اذن لا بد أن شخصا آخر هو المذنب
والدليل — دليل البراءة — يشير الى المذنب الحقيقى ،
وكانت راشيل تعتقد أن هذا الشخص — المذنب
الحقيقى — قد منع عودة ستيفن . كانت تخشى أن يكون
شخص ما قد قتل ستيفن .

أما مخاوف لويزا وسبسى فكانت ترتبط — سرا —
بتوم (الابن) . ولم تمرز أى منهما على الحديث عن
أفكارهما ، وان كانت كل منهما تعرف ما يدور فى

رأس الأخرى . فى هذه الأثناء بقى توم بالقرب من
باوندرباى وستيفن بلاكبول لم يعد بعد !

فى يوم الأحد ، خرجت سيسى وراشيل من محطة
القطار فى الريف . كان المكان بين كوكتاون ومنزل
السيد باوندرباى الريفى . كان يوما جميلا مشرقا من
أيام الحريف . أخذتا تتمشيان عبر الحقول فى طريق
طويلة مظلمة . . كان الريف لا يزال أخضر ناضرا وقد
حاولتا أن نتجنبنا المباني الخالية السوداء التى كانت
تتبع مناجم الفحم القديمة . وفى الظهيرة جلسنا
تستريحان . .

وقالت سيسى :

— ان المكان هادى جدا هنا ، فالناس لم يعودوا
يستعملون هذه الطرق الآن .

وبينما هى تقول هذا لاحظت سيجا قديما محطما
على بعد عدة خطوات منها فهضمت لتلقى نظرة عليه
وهى تقول :

— ان شخصا ما قد كسر هذا السياج حديثا . .
أوه راشيل تعال ! هناك قبعة ملقاة على الحشائش !
ارتعدت زاشيل عندما التقطت القبعة من الأرض .
نظرت داخلها فرأت الاسم ستيفن بلاكبول !

فقال فى ذهول خالطه الحزن :

— آه . . رجلى المسكين ! أيها الرجل المسكين !
لقد قتل ! لا بد أنه يرقد فى مكان ما قريب من هنا
يا سيسى .

ونظرتا حولهما دون أن تتحركا . لم يستطيعا
رؤية شىء آخر يخض ستيفن . فقالت سيسى :

— سوف أسير للداخل قليلا .

ولم تكذ تتحرك سيسى للأمام حتى صرخت
راشيل صرخة عالية وأمسكت سيسى بكلتا يديها
وجذبتها للخلف . . فإمامها كانت توجد حفرة عميقة
سوداء تكاد تكون مختفية بين الأعشاب الكثيفة . .
الطويلة !

لكوكتاون كما أننا بحاجة لطبيب . اسرعى الآن
يا راشيل ! فكرى فى ستيفن .. عودى أنت من نفس
الطريق وسأسير أنا للأمام ..

كانت الساعة الخامسة مساء عندما تم اخراج
ستيفن - المكسور جسمه - من الحفرة . كان لا يزال
حيا .. ولكن .. فقط لا يزال حيا .

فى هذا الوقت وصل السيد جراد جريند ولويزا
وأیضا وصل السيد باوندرباى وبصحبته الجرو ومعهما
الطبيب . أعطى الطبيب لستيفن بعض الأدوية القوية
وما هى ألا يضع دقائق حتى كان ستيفن قادرا على
الكلام .

كان يسير من مكان عمله فى طريق كوكتاون
متوجها الى بيت السيد باوندرباى الريفى .. انه لم
يسرق المصرف ولم يستطع أن يصبر حتى يثبت هذا ..
ولذلك عبر هذه الضاحية الخطرة فى الليل فسقط فى
هذه الحفرة .

وأخذت راشيل تبكى وتقول فى ذهول :

- آه يا ربى .. انه تحت .. هناك ! تحت !
وأخذت تبكى وتصرخ ولم تستطع سيسى أن تفعل
شيئا لتوقفها .. وأخيرا قالت سيسى :

- عزيزتى راشيل يجب علينا أن نفكر فى
ستيفن ، فاذا كان هنا فى هذه الحفرة .. فربما كان
لا يزال حيا ويجب أن نحصل على مساعدة بسرعة .

- نعم .. نعم ! نحصل على مساعدة !

فتوجهت سيسى الى حافة الحفرة وأخذت تنادى :

- ستيفن .. ستيفن !!

نادت عشرين مرة ولكن .. لا مجيب !

ثم قالت :

- لا يجب أن نضيع أى لحظة أخرى . يا راشيل
.. يجب أن نتحرك فى اتجاهات مختلفة لنبحث عن من
يساعدنا . اخبرى كل من تقابليه بما حدث . يجب أن
يحضروا معهم حبالا طويلة ، يجب أن نرسل رسالة

انحنى عليه راشيل وقالت :

- انك تعاني ألما عظيما يا رجل الحبيب .. انه
لامر فى غاية السوء ؟

- لم يعد هكذا الآن يا راشيل .. كان رهيبا ..
ولكنه لم يعد الآن .. انها لحبطة .. كل شىء لحبطة ..
أنظرى الى السماء يا راشيل .. هل ترى هذه النجمة ؟
نظر الجميع نحو السماء وشاهدوا نجمة من نجوم
السماء اللامعة .. واستأنف ستيفن الكلام :

- كنت أنظر اليها من مكانى فى قاع الحفرة
يا راشيل .. وكنت أحس أنها تخبرنى بالحقيقة ..
عندما تسلمت رسالتك يا راشيل تذكرت السيدة
الشابة وأخاها ..

هنا تحركت لويزا للأمام ومالت برأسها بالقرب
من ستيفن الذى استطرده :

- وظننت أنهما دبرا الأمر معا .. كنت أهرول
لأوجه اليهما عندما سقطت فى هذه الحفرة ، ثم

.. بالنظر طويلا الى النجمة .. رأيت الأمور أكثر
وضوحا .

ثم تحول الى لويزا وقال :

- لقد فهمت الآن أيتها السيدة .. جزاك الله
كل خير .. هلا تكرمت وحملت منى رسالة لأبيك ؟
كانت لويزا ترتعش وهى تجيبه قائلة :

- انه هنا !

ثم نادى أباهما .. فجاء السيد جراد جريند ،
فقال له ستيفن :

- سيدى ، ليس لدى الكثير من الوقت .. يجب
عليك أن تثبت أنى رجل شريف .. أنى أتربك سمعتى
بين يديك .

فأحسن السيد جراد جريند بالقلق وسأله قائلا :
- وكيف أستطيع أن أفعل هذا ؟

- ابنك سيخبرك يا سيدى . اننى لا أنهم أى
انسان ، ولا أقول كلمة واحدة ضد انسان . ولكنى

وحمله الرجال بلطف بالغ .. لم يتكلم ستيفن
ثانية .. وقبل أن يصل الموكب الى محطة القطار ..
كانت يده قد أصبحت .. باردة تماما ..

ولم يكن توم (الابن) فى الموكب !!

وابنك كنا قد تحادثنا ذات ليلة . كان يعرف لماذا كنت
أنتظر كل مساء أمام البنك . انه يعرف وأرجو أن
يحكى لك .

فى هذه اللحظة تركت سيسى المجموعة الصغيرة
المتحلقة حول ستيفن وذهبت الى حيث كان يقف السيد
باوندرباى وتوم (الابن) تحت الظل وهمست بشيء ما
فى اذن توم !

بعد هذا صنع الرجال الذين أنقذوا ستيفن سريرا
من أجله ولفه الطيب بالأربطة والقطن وأرقدته فوق
المحفة - التى صنعها الرجال - ثم حمله أربعة رجال
وساروا به عبر الطريق .. وبينما هم سائرون به
قال ستيفن موجها حديثه لراشيل :

- راشيل .. حبيبتى .. أمسكى بيدي ..
يمكننا الليلة أن نسير معا بدون خجل .

- سوف احتضنها يا ستيفن وسأبقى بجانبك

- وهبك الله حبه ! من فضلكم هل يتكرم أحدكم

بوضع الغطاء على وجهي .. ؟!



الفصل الحادى والعشرون

لم يشاهد توم جراد جريرند (الابن) فى كوكتاون
ثانية . ففى مساء يوم الأحد ذاك . . أخذ توم بنصيحة
سيسى - التى همست بها فى أذنه - وسافر فى الحال
الى ليفربول على بعد ثلاثين ميلا من كوكتاون . وهناك
عثر على سيرك سليرى وأعطى للسيد سليرى رسالة من
سيسى .

وبناء عليها لم يوجه السيد سليرى أية أسئلة
« لتوم » فقط قال بشهامة :

- لقد كان السيد جراد جريرند كريما مع سيسى

ولهذا .. فانا على استعداد لتقديم العون لابنه .

وهكذا أخذ توم زى مهرج ولون السيد سليرى
وجبه بالالوان البيضاء والحمرء والسوداء ، وأصبح
على توم أن يعاون المهرجين فى عملهم .

وبعد يومين وصل السيد جراد جريند وبصحبته
لويزا ونيسى الى السيرك وشرحوا خططهم للسيد سليرى
.. يجب أن يهرب توم الى أمريكا ، وثمة سفينة
ستفادر ليفربول فى هذه الليلة ووافق السيد سليرى
على هذه الخطة ثم أحضر توم الى داخل الخيمة وتركه
مع عائلته وحدهم .

دفن جراد جريند وجبه بين يديه حينما رأى ابنه
فى زى المهرج . واجهش بالبكاء وأخذ يقول :

— لماذا ؟! .. لماذا ؟! فعلت هذا ؟

سأله توم بغباء :

— فعلت ماذا ؟

— لماذا سرقت المصرف .. ان هذا الخبر قد
هدنى من الاعياء .

— كان يجب عليك أن تتوقع هذا ، لقد جعلتنى
أعمل فى مصرف ، وعندما يعمل خمسون رجلا فى
مصرف فلا بد أن أحدهم سيسرق أمواله .. هذه واحدة
من أشهر حقائق الواقع التى علمتها لنا .

لقد رددتها على سمعى مئات المرات .. كنت
دائما تجد الراحة مع حقائق الواقع .. حسنا ..
تمتع بهذه الحقيقة اذن !

أحنى السيد جراد جريند رأسه وقال :

— يجب أن ترحل عن انجلترا الليلة ..

وأعطى لتوم ظرفا مغلقا واكمل حديثه :

— ها هى التذكرة وبعض النقود . أرجو أن تفعل
شيئا طيبا فى حياتك القادمة . لقد كانت جريمتك
مروعة وكانت لها نتائج مروعة ، ولكن .. هات يدك
يا ولدى المسكين .. اننى أدعو الله أن يسامحك كما
سامحتك .

كان توم يبكي ففتحت لويزا له ذراعها لتحتضنه
ولكنه صرخ قائلاً :

- لا ! لا ! لا ! لا أريد أن أمسك ! كل هذا
كان بسببك ، فأنت لم تهتمي بأمرى أبدا !

فانفجرت لويزا فى البكاء ... وفى هذه اللحظة
دخل سليرى وقال :

- يجب أن نسرع فأمامنا ستة أميال لنصل الى
المرفأ والسفينة لن تنتظر من أجلنا ...

وخرج الجميع ليتوجهوا الى المرفأ ولكن ... فجأة
خرج رجل من خلف الخيمة ... انه بيتزر
كانت ترسم على وجهه ابتسامة خبيثة وقال :

- لقد تبعتم من كوكناون الى هنا ، واستمعت
الى حديثكم . أعتذر لافساد خطنكم ... فالسيد توم
(الابن) يجب أن يأتى معى . كنت دائما أعتقد أنه هو
الذى سرق المصرف والآن تأكدت أن ظنى كان فى محله .

أخذ السيد جراد جرند يهتز ويتوسل الى بيتزر :
- بيتزر ... أليس لديك قلب ينبض بالدفع ؟

- أجل يا سيدى ان البشر الأحياء كلهم لهم
قلب ينبض بالدفع ... هذه حقيقة معروفة جدا ،
فحرارة الجسم ...

فقاطعه السيد جراد جرند صانحا :

- أجل ... أجل يا بيتزر ولكن ... ألا تشعر
بالرثاء لجاننا ؟ هل تفكر من أجلنا أم من أجل بعض
المكافأة .

- رثاء ! ... لا ... فالرجال العقلاء لا يهتمون
بغير الحقائق المادية ياسيدى . اننى لا أكره السيد توم
ولكننى سأحصل على مكانه بالمصرف بعد أن يقبض
عليه .

- هل يمكننى أن أعرض عليك شيئا ؟ كم من
المال ؟ ...

- أعتذر لقطع حديثك ياسيدى . اذا أنا قبلت
المال ... فسأكون شريكا فى الجرم ، أفضل أن أحصل
على مكان السيد توم (الابن) فى المصرف ...

- أوه ! يا سيدي ! اننا بالتأكيد نطيع
القانون ، ولكن . لا أظنك تمنع في أن أصطحب معي
كلبي . فالحصان لن يذهب الى أى مكان بدون الكلب
ولهذا . . يجب أن نأخذه معنا .

فقال بيتزر :

- نعم ، يمكنه أن يساعد في حراسة هذا اللص
الكذاب .

ووصلوا الى العربية فصعد توم وبيتزر والكلب ،
وقال سليرى لبيتزر :

- اسمح لى بدقيقة يا سيدي ، سأخذ السيد
جراد جريند والسيدتين الى خيمتى حيث ينتظران
العربة .

وفى الخيمة شرح سليرى بسرعة ماينوى أن
يفعله :

- يمكنك أن تعتمد على ياسيد جراد جريند ،
فقد دربت هذه الحيوانات جيدا بنفسى ، فالحصان

كان السيد سليرى يستمع للحديث بقم مفتوح
من الدهشة ، ثم ابتسم خفية لسيسى وقال :

- حسنا ، ياسيدي . ان هذا الأمر لجد خطير
. . اننى لم أكن أعرف أن ابنك قد سرق مصرفا !

أما الآن فانا أوافق هذا الشاب المهدب ، اننى
أسف لهذا ولكن ابنك يجب أن يعود الى كوكتاون .

ثم توجه السيد سليرى بالكلام الى بيتزر قائلا :

- اننى لا أستطيع تقديم الكثير ياسيدي ، ولكن
حصانى وعربتى جاهزين وسوف أوصلك والسيد توم
(الابن) الى محطة القطار وسوف أمر بتجهيز عربة
للسيدتين ومعهما السيد جراد جريند وسوف
يتبعوننا .

فقال بيتزر :

- هذا حسن ياسيدي ، لم أكن أعرف أن رجال
السيرك يلتزمون بالقانون !

أقام السيد جراد جريند حفلا فى الفندق لكل
أفراد السيرك كانت سعادة سيسى عميقة لرؤية
أصدقائها القدامى .

أثناء الغداء همس السيد سلىرى فى أذن أنسىد
جراد جريند قائلا :

- لقد مات والد سيسى ياسيدى . لا أعرف
متى مات ؟ ولا أين ؟ ولكنى متأكد أنه مات .

- وكيف عرفت ؟

- أقول لك يا سيدى ، كان لدى والدها كلب
يدعى (مبرى ليجز) هذا الكلب عاد الى السيرك منذ
أربعة عشر شهرا . كان فى حالة سيئة . . مكفوف
البصر . . لا بد أنه مشى مسافة طويلة . حسنا ، لقد
أخذ يشم كل الأطفال الموجودين بالسيرك . . كان يبحث
عن طفلة يعرفها ، فلما لم يجدها جاء الى وبعد خمسة
دقائق أخرى . . مات . والآن ياسيدى ، هذا الكلب
ما كان ليترك جوب لو أن جوب كان حيا .

لن يذهب للمحطة فسيصاب بالجنون فى مكان ما
وسوف ادعى أننى لا أستطيع السيطرة عليه وعندما
تقترب من المرفأ . سيقدف بابنك فى العربة ، وسيمسك
الكلب بيتزر من بنطولنه وبالطبع لن أستطيع تقديم
أى مساعدة وسيكون ابنك على ظهر السفينة قبل أن
تبحر .

وبعد هذا أحضر السيد سلىرى ثيابا مناسبة
لتوم (الابن) وبعض الزيت ليغسل عن وجهه الأصباغ ،
كان الظلام قد خيم تماما على المدينة عندما بدأ سلىرى
يقود العربة . .

كان الجميع - السيد جراد جريند ولويزا
وسيسى - يشعرون بالامتنان والشكر لسلىرى وقد
قضوا تلك الليلة فى فندق .

عاد السيد سلىرى ومعه كلبه فى الرابعة صباح
اليوم التالى . فى هذا الوقت كان توم (الابن) فى
عرض البحر فى طريقه الى أمريكا . . بينما كان بيتزر
يسير فى طريقه الى كوكتاون . . وحيدا !

فقال جراد جريند :

« اعتقد أن هذا غير صحيح ، فسيبقى مازالت تحب
أباها وتأمل في عودته ، انها لم تشك لحظة في مدى
حبه لها .

— دعها تحيا مع الأمل ياسيدي . فسيجعل
حياتها أسعد كثيرا !

والآن .. ترى ماذا حدث لبقية أبطال القصة ؟

وإذا كان في مقدورنا أن ننفذ ببصرنا خلال حجب
الغيب لنطلع على المستقبل ، فماذا يمكننا أن نرى ؟

السيد باوندرباي : ظل السيد باوندرباي غاضبا
من مسز سبارسيت ، وهى نفسها بدأت تملة ، ولم
يمض أسبوعان حتى أرسلها الى عائلتها الغنية ،
وقبل أن ترحل قالت له :

— سيدي .. يجب أن تعمل فى سيرك ، فانك
حقا مهرج ! ولهذا فالسيرك هو مكانك الصحيح !

وبينما أصبحت مسز سبارسيت أكبر سنا

أصبح السيد باوندرباي أكثر غضبا . وفى أحد الأيام
بعد مرور خمس سنوات وبينما هو يمشى فى طريقه الى
البنك .. انفجر شىء ما فى داخله فسقط ميتا فى
الشارع . حقا انه لم ينهض بنفسه من الشارع ، ولكنه
وللحقيقة أيضا .. مات فيه !

السيد جراد جريند : تغير السيد جراد جريند .
وأخذ ألحبه والأمل مكان الوقائع والأرقام فى حياته
كما أن أطفاله الثلاثة الصغار قد نعموا بحياة أسعد من
لويزا وتوم وكتب السيد جراد جريند خطابا عاما أثبت
فيه براءة ستيعن بلاكيول وبين فيه أن ابنه توم هو
المذنب الحقيقي ..

والآن ترى ماذا خبا المستقبل « للويزا » ؟

أصبحت حياتها لطيفة .. هادئة وتلقت رسالة
من توم ، طلب منها أن تسامحه وقال لها فى رسالته :

« اننى لأضحى بكل كنوز الدنيا من أجل أن أمتع
عينى برؤيتك ثانية ،

كل مكان .. على الارضيات ومعلق على الجدران ..
الحب والسعادة والخيالات الجميلة ..

حتى السيد جراد جريند حاول أن يستمتع بكل
هذا !

ولويزا .. لويزا عشقت كل هذه الأشياء ..

لكنه لم يرها ، ولم تره ثانية ، فقد مات توم
محموما في المستشفى !

هل تزوجت لويزا ثانية ؟ هل قدر لها أن تنجب
بأطفال ؟

الاجابة هي .. لا

اذن هل كان لها اصدقاء ؟

الاجابة هي .. نعم .. فقد كانت هناك راشيل
التي عملت في مصنع النسيج بقية عمرها كانت طيبة
وحنون ، كما أنها أصبحت مع مر الأيام أكثر سعادة
فهى المرأة الوحيدة فى كوكتاون التى وثقت
وأشفقت على زوچه ستيفن بلاكبول .

وكانت هناك أيضا سيسى .. وأطفال سيسى
السعداء بالقرب منها . كان بيت سيسى مكانا رائعا
حقا .. تملؤه الزهور وتزين جدرانها اللوحات الجميلة
ومكتبته تحوى قصصا رائعة .. الجمال والخيال فى